عدد خاص

المورد

مجلة تراثية فصلية

تصدرها وزارة الثقافة والاعلام - دار الجاحظ - الجمهورية العراقية

المجلد الثامن - العدد الرابع 1400 - 1979

4

WWW.ATTAWEEL.COM

أسد الدين محمد

الظرف البغدادي

بقلم

فاطمة حمزة الراضي

كلية التربية ـ جامعة بغداد

لا ننكر ان البحث في موضوع (الظرف البغدادي) ، شيق ممتع ، فضلا عن انه يثير فينا نزوعا نفسيا للاطلاع على جوانب كثيرة مهمة لصيقة بواقع الحياة الاجتماعية للانسان العربي في بغداد العصر العباسي ، فالظرف بوصفه ظاهرة حضارية قد سادت المجتمع البغدادي ، وفي هذا القول شمولية وسمة تعم المجتمع العربي ، لان بغداد يومذاك مثل يحتذى ومنار يشع بكل مقومات الحياة المشرقة ؛ فحين يبحث الدارس في (الظرافة البغدادية) ، وممارسات الظرفاء ، فكأنه يتحسس ويلمس الصورة الطبيعية للحياة الاجتماعية المتوازنة للانسان ، في جدها وهزلها في تعقلها ، وعواطفها ، وفي حكمتها . ما لزم حد المعقول وما تجاوزه . وقد عاشت الحضارة الاسلامية زمن النضج يعلو مجتمعها دماثة في الخلق ، وحكمة في الرأي منبثة في انتاج العصر على ألسنة الظرّاف شعرا ونثرا ، وقد صوّر هذا الجانب من الحياة بصراحة وجراة بلغت حدا بعيدا ، واننا نجد ان الذي ساعد على ذلك هو : الظروف الثقافية وامتلاك وعي الواقع والنضج الحضاري والا لما استساغ ، وسجل ، ونقل ذلك الادب الظريف بكل انواعه ، لكثير من ظرفاء العصر .

ولقد كان لبعض الدارسين القدامى قصب السبق في التاليف في هذا الموضوع ، وفي مقدمتهم الوشّاء(*) في كتابه (الموشّى) . واخبار الظراف والمتماجنين ، واخبار الاذكياء ، لابن الجوزي .

ومن المحدثين صلاح الدين المنجد في كتابه (الظرفاء والشحاذون في بغداد وباريس) وقد استفاد من كتاب الموشى كما افدنا منهما في بحثنا هذا ، اما اخبار الظرفاء فقد غصت بها كتب الاخبار والادب والتاريخ وانبثت نصوصها في تآليف كثيرة ككتاب الديارات للشابشتي ، والاغاني لابي الفرج ونهاية الارب للدينوري ويتيمة الدهر للثعالبي ، وكتب الجاحظ ، وتاريخ الطبري ، والكامل في التاريخ والمنتظم . ومؤلفات السيوطي وغير ذلك كثير .

على اننا وجدنا ان في البحث في موضوع (الظرف البغدادي) اطلاع واسع على معرفة الاحوال الاجتماعية في العصر العباسي ولا سيما ان دراسة الاحوال الاجتماعية هي محك أو وسيلة من انجع الوسائل التي تكشف الاحوال الثقافية ، والعلمية بضروبها المختلفة ـ والنصوص دالة عليها ـ وبالتالي اظهار الجانب الحضاري للمجتمع وما بلغه من سمو وعلاء .

ولقد كان (الظرف البغدادي) سمة حضارية لانه يتصل كل الاتصال باسباب حضارتها(**) ، فبغداد ـ التي خلدها الشعراء في اشعارهم يومذاك استوت فيها الحضارة الاسلامية ونضجت ومال الناس فيها الى كثير من مظاهر الترف والاناقة والتزين بل التنافس في هذا السبيل وكانوا في بحبوحة من العيش وسعة الرزق وتعدد اسبابه وسبله ولا غرو في ذلك ، فقد عم الامن ،

(*) هو ابو الطيب محمد بن اسحاق عاش في بداية القرن الرابع للهجرة (٨٦٠ ـ ٩٣٦م) .

(**) ظرفاء المنجد ص/٢ .

WWW.ATTAWEEL.COM

وكثر الخير ، وتفرغ القوم للتمتع وافتنوا في ترف العيش والتنعم باسباب الدنيا وحب كل ما هو ظريف ظريف ، (وهذه عناصر تتصل بالفن اتصالا وثيقا)[1] .

وفي بغداد عاصمة الدولة العباسية اضحى المجتمع الاسلامي ـ بسبب الفتوحات وسعة الرقعة الاسلامية ـ خليطا اجتماعيا انفه الاسلام من عناصر شتى ذات طبائع واخلاق واذواق وبيئات وعادات مختلفة بكل موروثها ، الحضاري، والثقافي المختلف ، فكان من اغزر المصادر واعجبها[2] وساعد على خلق انموذج للانسان ، الذي تفاعلت ، وامتزجت في نفسه وروحه كل عوامل المجتمع الجديد ، فكان انسانا متحضرا دمثا ، في سماحة وظرف وذكاء وهي سمة حضارية استمدت مقوماتها من ذلك المزيج .

ومما افاء به الفتح الاسلامي على بغداد ، وغيرها من عواصم الدولة العباسية كثرة الاسرى من الجواري الفارسيات ، والروميات ـ وهو سبب نضيفه الى ما ذكرنا آنفا ـ ، وبذلك دخل ـ في المجتمع البغدادي ـ لون جديد ادخل مظهرا جديدا في المجتمع والجديد بطبيعة الحال يلفت النظر ، ويستدعي الاهتمام ، ومن هنا كان للمرأة الاسلامية الجديدة اثرها في مجتمع بغداد (فسعى نحوها الرجال ، وسعت القيان اليهم وتبودلت المشاعر ، وكان نتيجة ذلك التظرف والتزين والارضاء)[3] .

وراجت سوق الجواري ، وقد افتن النخاسون[4] في تعليمهن وتأديبهن الشعر ، والغناء فضلا عن حفظ القرآن الكريم ومأثور القول ، كل ذلك لان هؤلاء النخاسين وجدوا فيهن تجارة مربحة رائجة ، وانتشرت تجارة الرقيق في بغداد وعنى بها هؤلاء على اكمل وجه . وكان في بغداد شارع يسمى شارع (دار الرقيق) وقد بكاه الشاعر بقصيدة طويلة آخرها :

(1) الظرفاء / صلاح الدين المنجد طبعة الرسالة ص/٢ .
(2) نفسه / المقدمة . وانظر تاريخ الادب العربي : الفاخوري ص/٦ وتاريخ الادب العربي في العصر العباسي الاول : ابراهيم ابو الخشب ص/مقدمة .
(3) المنجد في الظرفاء ص/١٠ .
(4) باتعو الرقيق ، واحده نخاس . اللسان / نخس . وانظر مليحة رحمة الله : الحالة الاجتماعية في العراق في القرنين الثالث والرابع الهجري ص/٨٥ حول الشعر والغناء .

ومهما انسَ من شيء تولّى
فاني ذاكرٌ دار الرقيقِ[5]

واشتهر منهم كثير كأبي عمير الذي كان له جوار قيان لهن ظرف ، منهن (عبّادة) التي عنّاها عبدالله محمد بن البواب . يقول فيها :

لو تشكّى (ابو عُمير) قليلا
لانيناه عن طريق العبادة
فقضينا من العبادة حقا
ونظرنا في مقلتي (عبّادة)

ومنهم (الخطاب) كانت له جارية تعرف (بذات الخال) التي كان يهواها ابراهيم الموصلي ، وغيرهم كثير[6] . وقد كان الشعراء يأوون اليهم بسبب ذلك .

وقد احسنت الجواري اساليب المطارحة الشعرية والمنادمة وسبل المجالسة والمسامرة ، وتطارح الرجال من الشعراء الشعر معهن[7] ، وكانت بغداد والعصر العباسي مصر هذه المطارحة والمعارضة على الوزن والروي الواحد وبقية المعنى ، واكثر ما تكون الغلبة فيها لهن (فقد كن اسرع بديهة ، وارق طبعا)[8] .

ومن ذلك ما جرى بين الشاعر السلولي وعنان (جارية الناطفي) وصاحبة ابي نواس بعد ان طلبت ان يبدأ السابق في المعارضة[9] :

قال السلولي :

لقد جدّ الفراق وعيل صبري
عشيةَ سيرُهم للبين زُمّت

فقالت عنان :

كتمت هواكم في الصدرِ مني
على انّ الدموع عليّ نمّت

فكانت اشعر منه .

وقد عجت قصور الخلفاء والوزراء وذوي الجاه والمال منهم بهن ، ظريفات وظرفاء وكانت مجالس سمرهم ومنادمتهم واماكن لهوهم وبساتينهم مكانا لحضورهن ومصاحبتهن .

(5) الوشي : الوشاء ، مقدمة ص/د .
(6) نفسه .
(7) نمار القلوب في المضاف والمنسوب : الثعالبي ص/١٧٧ .
(8) قول الجاحظ في المصدر السابق نفسه .
(9) المرأة في ادب العصر العباسي : واجدة الاطرقجي /٢٠١ .

وفي ذكر انتشار الجواري والغلمان افادنا كتاب ابي حيان التوحيدي (ت ٤٠٠هـ) : الامتاع والمؤانسة بنص[١٠] ينير ذلك . قال : (فقد احصينا في بغداد سنة (٣٦٠هـ) : (٤٦٠) اربعمائة وستين جارية من القينات ومائة وعشرين من الحرائر ، وخمسة وتسعين من الصبيان الذين يجمعون بين الحذق والحسن . هذا سوى من كنا لا نظفر به ، ولا نصل اليه) . وابو حيان هذا شاهد معاصر واديب حضارة القرن الرابع يدلي لنا بدلوه بهذا الصدد .

قلنا ان الحضارة طغت في بغداد (مدينة السلام) وانغمس الناس في الترف ، ورقت الطباع ، والاذواق واخذ اهل ومجتمع بغداد العادات الفارسية ، وتاثروا بتقاليدهم ايما تاثر ، وكان اثرهم هذا اكثر من اثر اليونان ظهورا ، فقد كان اثر هؤلاء في الحياة العقلية في الفلسفة ، والجدل والمنطق[١١] . ولذا فقد كان تبدل المجتمع في بغداد تبدلا جذريا[١٢] . وهذا ما يكاد يجمع عليه المؤرخون في الادب والتاريخ ، وقد كثر التسري والجواري ، ويكفي ان نشير هنا ان ستة وثلاثين خليفة من العباسيين امهاتهم من الجواري[١٣] .

وفوق ذلك فان الروح الدنيوية سادت قصور الخلفاء ، والوزراء ومجالسهم ؛ كالرشيد ، والواثق وامثالهما وقد عدّت قصورهم ، وما بذخوا عليها ، وما ضمت عليه من فرش وثيرة ، طنافس ورياش ؛ وازاهير وتحف ، وسرر وما فيها من حدائق وبرك والوان مما دعا الشعراء وتخص منهم الظرفاء الى وصفها باجمل الابيات وارقها ظرفا ، مما يُعدّ من اعجب آيات الفن والعمران حتى انه ليشك[١٤] في انها من الحقائق الواقعة في بغداد وغيرها لولا ما تؤكد عليه النصوص الادبية المتواترة ، ونقول المؤرخين ومعاصري ذلك الترف مما اعتمد عليه البحث في (الظرافة البغدادية) .

ولقد كان الظرفاء من الرجال والنساء يتنادمون وهؤلاء اعطوا ايضا صورة او وجها جديدا للشاعر ودوره لانه كان يحمل طابعا تصح تسميته في عصرنا هذا بالمدافع (السياسي) في مراحل الاسلام السابقة ، الا وهو دور النديم لدى قصور الخلفاء والوزراء ومن هم في عدادهم ؛ وتغنى المغنون ، والمغنيات باشعارهم ؛ والناس في بغداد في هذا العصر يتغنون بالشعر الفصيح، والجواري والقيان يحفظن بل يحرصن على حفظه وروايته وغنائه ؛ وبرزت ، كثيرات ، ومنهن (عريب)[١٥] ، التي عرفت بجمال صوتها وانه من اجمل الاصوات بين المغنين والمغنيات وكن يغنين من وراء الستائر[١٦] ، مما يوقع الكثير من المستمعين بهواهن ؛ والحرص على لقائهن لمعرفة صاحبة ذلك الصوت الرخيم .

اسباب نشوء الظرف البغدادي

ان اسباب نشوء الظرف على ما بدا لنا سابقا كثيرة وقد مهدت لها عوامل عدة تظافرت وبلغت ، اوجها زمن الترف ، زمن المهدي (١٥٨هـ) ووصلت حد الانبهار ؛ زهو في العيش ، تمتع باللذات ، تانق في كل شيء ميل الى الظرافة والجدة ، والفن ، ترف فائق في الحياة ؛ توفرت في بغداد فزهوا بذلك كله، وقد اشار ابو حيان الى ان البغدادي[١٧] ميال بطبعه الى الظرف والتظرف .

وقد كان للغنى وكثرة الاموال عن طريق الجباية والخراج عاملا مهما ولما نقل وترجم بنشاط اثر عقلي فالتاثر الفكري الجديد في الفلسفة وعلم المنطق وما الف ادباء بغداد المعاصرين ــ كان من العوامل الاخرى المؤثرة في زيادة التظرف ، ولقد الف الجاحظ كتاب (التاج)[١٨] .

الظرف ظاهرة ومذهب

تعريف الظرافة ومدلولها :

تناولت مراجع اللغة دلالة (الظرف) واتفقت على مدلولات كثيرة تشتملها الظرافة ، ويتصف بها الظرفاء[١٩] ؛ فالظرف عندهم : البراعة ، وذكاء القلب ؛ يوصف به الفتيان الازوال[٢٠] ، وهم الغلمان

---

(١٠) ١٨٣/٢ .
(١١) ظرفاء النجد ص/١٠ .
(١٢) الحالة الاجتماعية في العراق : مليحة رحمة الله ص/١٠٧ ــ ١٠٩ وانظر اعلام النساء ١٧/١ .
(١٣) مقدمة الوشى ص/د .
(١٤) انظر مقدمة الوشى ص/و .

(١٥) شاعرة ومغنية ذات فصاحة وبلاغة ، قيل انها ابنة جعفر البرمكي ، ولها مراسلات مع ابراهيم بن المدبر وغيره وكان المامون يعشقها . توفيت سنة ٢٧٧هـ . انظر : المستطرف ص/٣٧ ــ ٣٨ وطبقات ابن المعتز ص/٢٥ .
(١٦) راجع حول الستائر ، مجلة المجمع العلمي بدمشق . مجلد/٢ ، لسنة ١٩٢٢ ص/٣٩١ (مقالة احمد ليمور ، الالفاظ العباسية) .
(١٧) انظر كتاب الصداقة والصديق ص/٢٢ .
(١٨) ظرفاء النجد ص/٢ .
(١٩) اللسان / ظرف ، والتاج كذلك .
(٢٠) البستاني : محيط المحيط مكتبة لبنان ١٨٢٠/ظرف ←

الظراف ، وذكروا أنه لايوصف به الشيخ ولا السيد فكأنه من لوازم الشباب لدواع كثيرة فيه . ومايقرب من هذا المعنى في الدلالة انه اي الظرف : حسن العبارة ، والهيئة ، وهو مصدر الظريف . وقد ظرف يظرف ، وهم ظرفاء ورجل ظريف من قوم ظراف ، وظروف وظراف على التخفيف من قوم ظرفاء . وظراف بتشديد الراء من قوم ظرافين ...

ويتظرف : يتكلف الظرف .

والظرافة قليلة في غير الشعر[٢١] . قال ابن الاعرابي : الظرف في اللسان ، والحلاوة في العينين ، والملاحة في الفم . والجمال في الانف . قال : كانه جعل الظريف وعاء للادب ومكارم الاخلاق[٢٢] .

وفي حديث ابن سيرين : الكلام اكثر من ان يكذب ظريف ، اي ان الظريف لاتضيق عليه معاني الكلام ، فهو يكني ويعرض ولا يكذب . والظريف يملك تلك الملكة التي تكون مبدأ لصدور الالفاظ التي لاتخلو من ظرافة والهام[٢٣] .

وابن الجوزي[٢٤] يذكر للظرافة والظريف مدلولا يقرب من مفهومنا للظرافة اليوم ، فقد نقل قول الحسن البصري .. كانه وعاء كل لطيف .

والتورية تدخل في معاني الظرف ، فما يوجب خجل المذنب فيورى عنه هو من الظرف كذلك قوله تعالى على لسان يوسف عليه السلام « اذ اخرجني من السجن »[٢٥] ولم يذكر (الجب) لئلا يستحي اخوته .

واحسب انما ذكره ابن الجوزي ممهدا للتوسع في بعض معاني ومدلول الظرف الذي فيه حلاوة النكتة[٢٦] .

وقيل : ان الظرف لايكون الا في اللسان[٢٧] يقال : فلان ظريف اي هو بليغ جيد المنطق ومنه حديث عمر (رض) : اذا كان اللص ظريفا لايقطع اي ان له لسانا يتحجج به فيدفع عن نفسه .

فانت تجد مدلولات مترابطة المعاني لاينفك بعضها يشد ازر بعض ، فالذكاء وبراعة اللسان ، والبداهة وتعدد الجواب والبلاغة والتورية منها دائرة في فلك واحد على التوسع في المعنى الذي وصل اليه الظرف بعدئذ .

صفة الظريف وسنن الظرافة :

لاادب لمن لامروءة له ولامروءة لمن لاظرف له ، ولاظرف لمن لاادب له . فالوشاء[٢٨] هنا يجعل للظريف من الخلال ما يلزم به فهو اديب متادب تحمد خلاله ذو مروءة ، وليس هذا فحسب فقد نعته بنعوت كثيرة ، فالفصاحة ، والبلاغة ، والعفة والنزاهة ، فضلا عن انه حسن الوجه ، رضي الهيئة ، قد اخذ من العلوم ، فصار وعاءا لها ، رقيق الطبع ، صادق اللهجة ، كاتما للسر . هذا هو سلوك الظريف ولا يكون بخلافها ممن يعد منهم . كما ان للظرفاء البغداديين سلوكا اجتماعيا يكن عن مبلغ الكمال في حسن السيرة والسلوك . منها حفظ ذمار الجار والوفاء له ، والانفة من العار ، وطلب السلامة من الاوزار ، والوشاء حين ينقل لنا ماذكرناه قد استشفها من واقع ممارسات الظرفاء في بغداد من ذلك انه (الوشاء) سأل ظريفا عن الظرف : (فقال : التودد الى الاخوان ، وكف الاذى عن الجيران)[٢٩] . فالظرفاء في بغداد لهم ميزات تنبيء عنهم لما فيهم من لطف في الشمائل ، ورهافة في الحس ، وتتبع للجمال والتانق في الملبس ، والتطيب ، والزينة ، والهيام بالرياض . والازهار والولوع بالطريف الذي لم تعرفه العوام ، واللباقة في التعبير عن الاحساس بالافكار والمتظرفات لهن زهو حلو وعناية بالشعر الغنائي العربي الذي يترجم العواطف والهوى[٣٠] . وفوق ذلك لانخلو حياتهم من بساطة في جمال . وقد تجاوز هذا الى فوضى لدى بعضهم : وفيه يقول الوشاء : (سألت بعض متظرفات القصور عن ظرفهن فقالت من كان فصيحا عفيفا كان عندنا ظريفا متكاملا ، ومن كان غنيا عاهرا كان ناقصا[٣١] ، والصراحة من شؤونهم وبلغوا مبلغ عمر بن ابي ربيعة ، من ذلك شعر ابن المعتز ومسلم بن الوليد ، قال مسلم :

انـي احبك فاعلمـي
ان لم تكوني تعلمينا

قال : هو الخفيف الظريف يعجب من ظرفه ، والجمع :ـ ... ، وفي حديث النساء : (بزولة وجلس) ، هي الفطنة الداهية ، وقيل : الظريفة ، وتزول : تناهى ظرفه ، وانظر اللسان / زول .

(٢١) اللسان / زول .
(٢٢) اللسان / ظرف وزول .
(٢٣) البستاني / ظرف ، والسابق نفسه .
(٢٤) الظراف والمتماجنون ص/٣ .
(٢٥) الاية ..١٠٠ يوسف .
(٢٦) الظراف والمتماجنون ص/٣ .
(٢٧) الاصمعي وابن الاعرابي : الموشى ١٥٩/٢ ـ ١٦٠ .

(٢٨) الموشى ٥٠/١ .
(٢٩) الوشاء ص/٥٢ .
(٣٠) المنجد في الظرفاء ص/٢ .
(٣١) الوشاء ص/٥٢ .

حبـــا أقـل قليلـــه
كجميـع حب العـالمينـا

وتفانوا في حبهم كقول قائلهم :

انا الذي لم تدع فيه محبتكم
فضلا لغيرك من انس ولا جان
سلبت روحي واسكنت الهوى بدني
فصار فيه مكان الروح في الجســد

ولا يفوتني هنا ان اذكر شيئا من فطنة ظرفاء بغداد مما ذكره ابن الجوزي في اخبار الظرفاء[٢٢] وذلك : (ان المأمون غضب يوما على طاهر بن عبدالله فاراد طاهر ان يقصده فورد كتاب له من صديق له ليس فيه الا سلام وفي حاشيته : (يا موسى ، فجعل يتأمله ولا يعلم معنى ذلك . وكان له جارية فطنـة فقـالت : (يا موسى ان الملأ يأتمرون ليقتلوك)[٢٣] .

وفيه ايضا : (قال المأمون لزبيدة لما قتل ابنها : لن تعدمي الا عينيه ؛ وانا ولدك مكانـه فقالت : ان ولدا افادنيك جـدير ان اجزع عليه)[٢٤] .

وفي صدد سنن الظرفاء وما عليهم من شرائع قول الوشاء : فيما نصه :

(واعلم ان للعشق سنة مقصودة ، وللظرف شرائع محدودة ورأينا اربابه واهله وطلابه متبعين لسبلها ، متمسكين بحبلها ، متى حالوا عنها سموا بغير الظرفاء عند اهل الظرف ودعوا الى غير سنّة العشاق والادباء ولهم فيما استحسنوه من الزي والطيب والثياب ، والهدايا والطعام والشراب حدّ محدود ، مستحسن معلوم ، وزي بين الطائفتين مقسوم ، لا الرجال يتجاوزون الى ما حدّ لهم الى حد متظرفات النساء ، ولا النساء يتجاوزن حدهن الى حد الرجال الظرفاء ..)[٢٥] .

الظرف مذهب

غدا الظرف مذهبا واستوى وله سنن وعادات زمن المهدي (١٥٨هـ) زمن الترف في بغداد[٢٦] ، واعتنقه كثير منهم وبعد ان كان في بغـداد ظرفاء اخذ الاخرون من البغداديين وغيرهم يتظرفون ، قاصدين اليه ؛ ومنتقين اياه .

وقـد نما الظرف والتظرف في وقت شاعت فيه الزندقة بين النـاس ، واحب الظرفاء رقـة الزنديق ولطفه وصراحته فضلا عن انهم نشـدوا العلم والعقل والادب فاصبحت الزندقة مدعاة الى الظرف وعبر الناس عن ذلك فقالوا في المثـل : (اظرف من زنديق)[٢٧][٢٨] .

وانتحل كثـير من الظرفاء الزندقة منهم محمد بن زياد ، قيل انه تزندق تظارفا فقال ابن منادر فيه :

لسـت بزنديـق ولكنمـا
اردت ان توسـم بالظـرف[٤٠]

وقد تزندق المتظرفون حتى قيل انهم تزندقوا وغلبت عليهم هذه الصفة او ليضيفوا الى الظرف زندقة . كما في قول الشاعر :

فقـد بقي التزندق فيـه وسما
وما قيـل الظـريف ولا الخفيف
تزندق معلنـا ليقـول قـوم
مـن الادبـاء زنديـق ظريف

واستغطب الظرف الناس فصار مدعاة للفخر والاعتزاز ، ونظر له العوام طموحا يسمون اليـه ولا سيما - بعد ان كانت للظرفاء حظـوة لدى الخلفاء والامراء .

وقد افادنا الثعالبي في ذلك فاورد في كتابـه ثمار القلوب[٤١] نسبة الظرف الى الزنديق فقال : اما قولهم : اظرف من الزنديق فقد صار مثـلا في زمان كثير ظرفاؤه وهـو زمان المهـدي ، وكانـوا يرمون بالزندقة كأبي العتاهية ، وبشار بن برد ، ومطيع بن اياس .. وغيرهم ثم قال وما منهم الا

---

(٢٢) ص/١٤٨ .
(٢٣) القصص : ٢٠ .
(٢٤) الظراف والمتماجنون ص/١٥٩ .
(٢٥) الوشاء ص/١٥٩ - ١٦٠ .
(٢٦) ظرفاء النجد / ١ .
(٢٧) قال الجواليقي في المعرب ص/١٦٦ - ١٦٧ ليس في كلام العرب « زنديق » والجمع زنادقة . والهاء فيها مزيدة عوض من الياء في زنديق . وهو فارسي معرب .
والزنديق : القائل ببقاء الدهر ، وزندقته انه لا يؤمن بالآخرة ووحدانية الخالق .
(٢٨) انظر اللسان زندق .
(٢٩) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب للثعالبي ص/١٧٧ .
(٤٠) ظرفاء النجد / ٧ - ٩ .
(٤١) الثعالبي / ١٧٧ .

نظيف البزة ، جميل الشكل ، ظاهر المروءة ، فصيح اللهجة وكان ابو نواس يعد فيهم :

وصيف كأس منحدثه مليك
فيه مغنٍ وظرف زنديق[٤٢]

ظرف العامة :

ولقد كان هذا الظرف الذي تحدثنا عنه يمثل الطبقة الارستقراطية في المجتمع لانه ظرف المترفين في القصور وتأثرت العامة بذلك فنشأ هناك ما يسمى بظرف العوام ونذكر هنا خبرا يمكن ان يعطينا ولو صورة بسيطة عن هؤلاء ويوضح الفرق بينهما جاء عن ابي الفرج الاصفهاني ان محمد ابن ذي السيفين ارسل طعاما الى (عريب) يوما فلما رأته امرت فانهب ، فارسلت إليه طعاما ، ورقعة فيها : يا عجمي يا غبي ظننت انني من الاتراك وحرش من الجند ، فبعثت الي بخبز ولحم وحلواء ، يا فدتك نفسي قد وجهت اليك زلة من حضرتي فتعلم ذلك اخلاق العامة في الظرف فيزداد العيب والعتب عليك فكشف محمد المنديل ، فاذا طبق ومكبة من ذهب وفيه زبيبة فيها لفتان من رقاق قد عصبت طرفيهما وفطعتان من صدر دراج مشوي[٤٣] .

اثر الظرف في المجتمع البغدادي

لقد كان للظريفات خاصة والظرفاء عامة اثر في المجتمع البغدادي ، من بينهم الجواري فقد كان لهن بليغ الاثر في التمذهب بمذهب (الظرف) ونبذوه ، فقد تفنّن الظرفاء في التقرب اليهن ، واخذ ظرفاء العوام يقلدونهن ، زد على ذلك ما لهن من الاثر السياسي في الدولة فقد برعت منهن شخصيات عرفت في الميدان السياسي وذلك برجاحة عقولهن وصواب آرائهن الى جانب اجادتهن الشعر والادب والغناء ، والمنطق .

وممن اشتهر من الجواري (ام المقتدر)[٤٤] فقد برزت وكانت صاحبة نفوذ وقوة ، وسلطة وبقيت في العصر العباسي الثاني ، ودام ذلك امدا .

وام المعتز[٤٥] : جارية رومية رائعة الجمال سميت (قبيحة) من باب تسمية الشيء بضده ، وكان المتوكل يفضلها على جواريه واصبحت بعدئذ سيدة انبلاط العباسي . وكانت وفاتها سنة (٢٦٤هـ) بسامراء .

ومنهن القهرمانات (الحاكمات) اللواتي لهن ادوار سياسية كام موسى الهاشمية وحسن الشيرازية وزبدان الشيرازية ونظم فالاولى وصيفة ام المقتدر كانت تشرف على حبس رجالات الدولة قبل ان المستكفي كان عبدا لها[٤٦] .

والخيزران زوج المهدي وام الرشيد كانت ذات نفوذ وسلطان[٤٧] ؛ فاحشة الثراء سعت في قتل المهدي وتولية الرشيد مكانه .

وبذلك اصبحت الظريفات شغل المجتمع الشاغل مع الظرفاء ، وخاصة في قصور الخلفاء وتجلت مطارحاتهن ومعارضاتهن في الشعر وما وقع لهن من اخبار مع عشاقهن من الخلفاء والوزراء كان موضع اهتمام ادباء وكتاب العصر فسجلوا كل ذلك ، واختصت به مؤلفات تناقلتها اسفار مهمة من المظان المختلفة ؛ فقد التت بكل طريف ظريف نذكر بعضها ، وقد احتوى بعضها على قسم من طرائف وملح الظرفاء :

رسالة القيان (ثلاث رسائل) للجاحظ .
اشعار النساء للمرزباني .
اخبار الظرفاء والمتماجنين لابن الجوزي .
المستطرف من كل فن مستظرف : للابشيهي
المستظرف من اخبار الجواري للسيوطي جلال الدين .
نساء الخلفاء لابن الساعي . تحقيق مصطفى جواد .
اخبار النساء لابن قيم الجوزية .
الاذكياء لابن الجوزي .
بين الخلفاء والخلعاء في العصر العباسي صلاح الدين المنجد .
الموشى للوشاء .
اعلام النساء عمر كحالة .

ومن المعاصرين صلاح الدين المنجد في كتابه (الظرفاء والشحاذون في بغداد وباريس) .

وادب المرأة في العصر العباسي لواجدة الاطرقجي[٤٨] ومقالات الدكتور مصطفى

---

(٤٢) ديوان ابي نواس ص/٤٥١ ط. بيروت .
(٤٣) ظرفاء النجد ص/٢٦ ـ ٢٧ .
(٤٤) انظر ابن الاثير في الكامل ١٣٩/٨ حوادث سنة (٢١١هـ) والمنتظم : ابن الجوزي ١٧١/٦ ، ١٧٤ ـ ١٨٥ .
(٤٥) اعلام النساء ١٨٤/٤ ، نساء الخلفاء / ٨١ ، المستطرف /٥٧ .
(٤٦) الخلفاء والخلعاء / ١٧ .
(٤٧) المستطرف / ٢٤ .
(٤٨) رسالة دكتوراه لم تطبع بعد / ١٩٧٨ .

جواد والمنجد وغيرهم في المجلات . هذا وكل المراجع المذكورة في ثبت المراجع ، وغيرها مما لم تصل اليه ايدينا كثير .

ولمكانتهن والاعتزاز بهن كن يرثين ننقل اليك من قول ابي احمد يحيى بن علي المنجم يعزي ولد (اسحاق جارية المتوكل وام المؤيد والموفق) الموفق بوفاتها فيقول[٤٩] :

لقد اظلمت بغداد عند وفاتها
كاظلامها للشمس ساعة تغرب

فولت وولى الحمد يتبع نعشها
ويصدق من يثني عليها ويندب

وما مات من ابقى الامير ومن له
من الفضل ما يعزى اليها وينسب

تقدمها اياك بعد بلوغها الـ
ـمنى فيك ما كانت من الله تطلب

فقد اعطيت في ذاوذالك سؤلها
وباتت كما بات الحيا المتحلب

فاحسن عزاء وابق فينا مسلما
مفدى من الاسواء ترجى وترهب

وقد اعتزت الظريفات باسيادهن فرثينهن وهذه (تيماء) جارية ابي العباس خزيمة بن خازم النهشلي فقالت ترثيه[٥٠] :

ان ابا العباس خدن العلى
خزيمة الياس فتى الجود
والمتلف المخلف رب الندى
اودى فما جود بموجود
لئن حواه القبر ميتا فقد
تضيق عنه سعة البيد
كانه لم يغن يوما ولم
يَعْدُ على الشم الصناديد

ولما ماتت (شاجي) وهي محنة مبرزة متقدمةفي الغناء (ت ٢١٩)[٥١]ـ جارية علي عبيدالله ابن عبدالله بن طاهر ـ حزن عليها حزنا شديدا وانشد :

زرعت وشاجي بيتنا من شبيبتي
غراس الهوى فاعتم بالثمر العذب
فشاب بنو شاجي لظهري وادركوا
وشاب بنوهم وهي مالكة قلبي

وفي كثير من الاحيان كان الظريفات أنداد يعارضوهن الشعر ويهاجونهن كالذي جرى بين ابي نواس ودنانير[٥٢] وما جرى بين العباس بن الاحنف وعنان فقد كان يهواها فجاء ابا جعفر النخعي يوما فقال : امضي بنا الى عنان ، فكانت كالمهاجرة له فجلسا قليلا فابتدا العباس فقال :

قال عباس وقد اجهد في وجد شديد
ليس لي صبر عن الهجر ولا لدع الصدود
لا ولا يصبر للهجر فؤاد من حديد

فقالت عنان :

من تراه كان اغنى
منك عن هذا الصدود
بعد وصل لك مني
فيه ارغام الحسود
فاتخذ للهجر ان شئـ
ـت فؤادا من حديد
ما راينـاك على ما كنـ
ـت تجني بجليد

فقال العباس :

او تجودين بصفح
عن اخي وجد شديد
واخي جهل بما كا
ن يجني من صدود
ليس من احدث هجرا
لصديق بسديد
ليس منه الموت ان
لم تصليه ببعيد

قال : فقلت : ويحك ما هذا الامر ؟ فقال : انا جنيت على نفسي بتتياهي عليها ، فلم ابرح حتى ترضيتها له .

الحب عند الظرفاء

الم تعلم فداك ابي وامي
بأن الحب من شيم الظراف

هذا البيت للشاعر محمود الوراق ، وقد ذكره الوشاء[٥٣] مشيرا الى ان الحب من صفاتهم،

---

(٤٩) انظر المستظرف / ١٠ ـ ١١ ونساء الخلفاء / ٨٢ .
(٥٠) المستظرف / ١٦ ـ ١٧ .
(٥١) المستظرف / ٢٥ ، ونشوار المحاضرة ٦٣/١ ـ ٦٤ .
(٥٢) جارية اديبة ، شاعرة ، مغنية ، راوية للشعر والغناء . حكت لغناء ابراهيم الموصلي . اعلام النساء ٤١٧/١ والمستظرف / ١٨ .
(٥٣) الوشاء ٥٩/١ والوراق هذا كان نخاسا يبيع الجواري .

وقد حفل ادب الظراف به . وللظرفاء حب ووفاء للاصدقاء قبل حب العشاق والمعشوقات فهم اوفياء اشد الوفاء . وهذا التزام لا خروج عنه عند الظريف وله حدوده المعقولة المطلوبة دون افراط واستهانة ؛ والنصوص شاهدة على ما ذكرنا شعرا ونثرا ومنها ان بعضهم سئل :

(اخوك احبه اليك ، ام صديقك ؟ فقال : اخي اذا كان غير صديق لم احبه .)[٥٤] .

ولهم ملاحظات ذكية ؛ وحدود في حب الاصدقاء وقول الشاعر في ان حب الصديق للصديق دون افراط جميل محبب ، مفضل ، حذر انكشاف الضد : دليل ذلك قول الشاعر :

فهونك في حب وبعض فربما
يرى جانبٌ من صاحب بعد جانب[٥٥]

ولا ينكر ان حب الحبيب والمحبوب هو الجانب الذي طغى على ظرف الظرفاء فقد طغت عليه المشاعر ؛ واليه انست نفوسهم ، وانبعثت فيها كل انواع المرة والعوامل كثيرة كنا قد ذكرناها من اول هذا البحث .

وفيما رأى الوشاء[٥٦] انما هو اشارة الى مصاحبة عفة النفس وعدم التبذل والترفع عن الدنايا ، وهو حب لا يدعو الى ريبة ؛ ولا سيما وان كمال الظرف ان (يكون عن الحرام عفيفا)[٥٧]؛ ويبدو ان الوشاء وقد عاش عصر الظرافة وسجل لنا سننهم وشرائعهم التي لا تتجاوز ولكن الذي وضح لدينا ان النصوص الواردة والجزء الاول خاصة كان لظراف عشقوا واحبوا حبا عذريا عفيفا في زمن كان فيه ما يزال السلطان للدين قائما . ولكن الظريف لابد ان يكون قد عانى في هذا السبيل فهو لا يخلو من هوى ، (ولا يعرى من ضنى ، لان الهوى كما وصفه العلماء ، وكما قال فيه الحكماء: انه اول باب تفتق به الاذهان ، وتنفسح به الجنان، وله سورة في القلب ، يحيا بها اللب ..)[٥٨] .

ولقد اقر مسألة الحب والعشق عند الظرفاء ، ولكنه ابتعد بهم عن التبذل والترخص

(٥٤) نفسه .
(٥٥) نفسه .
(٥٦) ظرفاء المنجد ص/٢٨ ، وانظر قول ابن سيرين في الامتاع والمؤانسة ٥٦/٢ .
(٥٧) الوشاء ٥٩/١ .
(٥٨) نفسه .

وعدم الوفاء أو السعي وراء لذة دنيوية مؤقتة ؛ نعم لقد هاموا عشقا :

بي اليأس او داء الهيام اصابني
فإياك عني لا يكن بك ما بيا

والهيام داء يأخذ الابل فتشرب فلا تروى ، ولم يكن ببعيد موت بعض العشاق بسبب هيامهم .

لان (العشق يحسن باهل العفة والوفاء ، ويقبح اهل المهر والخنا) ؛ وعاب على الظرفاء المتماجنين ومباذلهم ، لانه كما يقول : (ما وجدنا احدا من العرب يفعل ذلك ؛ وقد كان الواحد منهم يعشق من اول دهره الى آخره ، لا يحاول قسما ؛ ولا يقرب رفث[٥٩] .

اقول هنا ان الوشاء بصفته اول من كتب عن الظرفاء بهذا الشكل الموسع انكر المباذل واحسب ان عبارة ابن سيرين الواردة في كتاب الامتاع والمؤانسة نافعة بهذا الصدد حيث يقول : (كانوا يعشقون في غير ريبة وكان لا يستنكر من الرجل ان يجيء الى اهل البيت ثم يذهب ، قال هشام ، ولكنهم اليوم لا يرضون الا بالموافقة)[٦٠].

وقد حمل الوشاء[٦١] على القيان والجواري فقال : (اعلم انه لم ينل احد من اهل المروءات ، والادب ، ولا امتحن سراة الفتيان ببلية هي اعظم من هوى القيان ..) .

اود ان اقف عند مقولة الوشاء هذه ومن شايعه الراي من معاصري هذه الحقبة ولم يثبتوا عنده بل سرعان ما خالفوا ما ذكروا ؛ والجاحظ منهم[٦٢] فاقول :

١ ـ ان الجواري والقينات كانت مهماتهن بقدر ما وجهن اليه ودربن عليه مثل حفظ الشعر والمطارحة والغناء ، والتزين واظهار الغنج وما يلحق به .
٢ ـ انهن على ما بدا لنا قد وقعن فريسة بيد النخاسين ومن هم دون ذلك .
٣ ـ انهن وما بنين من العلاقات المستهجنة وما اخذ عليهن من الممارسات لهن دور مبادلة طرف آخر .

(٥٩) انظر في هذا الموضوع الوشاء ٩٩/١ .
(٦٠) التوحيدي ٥٦/٢ .
(٦١) الوشاء ١١٦/٢ .
(٦٢) ثمار القلوب ص/٤٩٠ . ورسالة القيان للجاحظ ص/٨٢ .

٤ ـ لقد وقمن ـ في الغالب ـ تحت قهر وضغط من ملكهن من الاسياد . وهذا لا يحتاج الى بيان لان النصوص الادبيـــة والتاريخيـــة شاهدة عليه وهي كثيرة .

٥ ـ وحقيقة اخرى اسوقها هنا وهي : انهن لم يكن عربيات .

اضيف الى مـا ذكرت ان روح العصـــر ، وتفتحه ، وظروفه الثقافية والاجتماعيـــة توحي للباحث وتبدي له ان الكلام عن الجنس والتحدث بذلك كان مباحا لا يتحرج منه بدليل النصـــوص الكثيرة الظريفة الشعرية وغيرها . والمتداول منها في مجالس السمر ، والندمان والشرب اكثر ، مما يجعلنا نقول ان ما نستهجنه اليوم في التحـــدث بمثلها كان يجري جريانا طبيعيا ويأخذ طريقه في حياتهم .

ومن الجواري من لم يتقدمن اخلاصـــا ووفاء ، فهذه (دنانير) ابت على الرشيد ان تغني بعد نكبة جعفر البرمكي ففضب الرشيد وصفعها وجعلها تقيم على رجليها ، واعطيت العود فأخذته وهي تبكي أمرّ البكاء واندفعت تغني :

يا دار سلمى بنـــازح السنـــد
بين الثنـــايا ومسقط اللبـــد
لمـــا رايت الدار قـــد درســـت
ايقنت ان النعيـــم لـــم يعُـــد

فرق لها الرشيد وامر باطلاقها .

ثم التفت لابراهيم بن المهدي فقـــال : كيف رايتها ؟ فقال رايتها تختله برفق وتقهره بحذق . خطبها عقيل مولى صالح بن الرشيد والـــح فلـــم تجبه .. واقامت على الوفاء لمولاها فكتب لهـــا عقيل :

يا دنانـــير قـــد تنكر عقلي
وتحيرت بين وعـــد ومطـــل
شغفي شافعـــي اليـــك والا
فاقتليني ان كنت تهـــوين قتلي
انا باللـــه والأمـــير ومـــا
آمـــل من موعـــد الحسين وبذل
ما احب الحيـــاة يا اخت ان لـــم
يجمـــع اللـــه عاجلاً بك شملي

ووفاء (محبوبة)[٦٤] جاريـــة المتوكل التي نسبت دون الجواري حتى توفي المتوكل واقامت في بغداد على وفائها له حتى ماتت .

ووفاء (هند)[٦٥] جاريـــة ابي محمد بن مسلمة الشاطبي الكاتب التي ظلت على وفائهـــا للفتح بن خاقان ورثته بقولها :

قلت للمـــوت حين نازلـــهُ
والموت مقدامـــةٌ على البُهُـــم
لمـــا تبيّنتُ ما فعلت إذن
قرعيتُ سنّا عليـــه من النـــدم
فاذهب بمن شئت إذ ذهبْت بـــه
ما بعـــد فتحٍ نلموتِ من الم
ولم تزل تبكيه وتنوح عليه حتى ماتت .

وفي اخبـــار النساء ووفائهن روى ابن قيّم الجوزية[٦٦] هذه الرواية : (قال الاصمعي : قال الرشيد : امضِ الى بادية البصرة فخذ من تحف كلامهم وطرف حديثهم . فانحدرت ، فنزلت على صديق لي بالبصرة ، ثم بكرت انا وهو الى المقابر ، فلما صرت اليها اذا بجارية تنادي الينا ريح عطرها قبل الدنو منها ، عليهـــا ثياب مصبغات وحلي ، وهي تبكي احر بكاء . فقلت : يا جارية ما شانك ؟ فانشأت تقول :

فان تســألاني فيمَ حزْني ؟ فانني
رهينة هـــذا القبرِ يا فتيـــان
اهابك اجلالاً ، وان كنت في الثرى
مخافـــةً يـــوم ان يســـوءُ مكاني
واني لاستحييكَ ، والتربُ بيننا
كمـــا كنت استحيك حين تراني

فقلنا لها : ما راينا اكثر من التفاوت بين زيك وحزنك فاخبري بشانك ؟ فانشأت تقول :

يا صاحب القبر ، يا من كان يؤنسني
حيّـاً ويكثر في الدنيـــا مواساتي
ازور قبـــرك في حلي وفي حلَلٍ
كانني لست من اهـــل المصيبـاتِ
فمـــن رآني ، رأى عبرةً مفجمـــة
مشهـــورة الزيّ تبكي بين امـواتِ

(٦٣) اعلام النساء ١/٤١٨ ـ ٤١٩ .
(٦٤) انظر المستطرف ص/٦٧ .
(٦٥) المستطرف ص/٧٤ .
(٦٦) ص/١٢٦ ـ ١٢٧ .

فقلنا لها : وما الرجل منك : قالت بعلي ، وكان يحب أن يراني في مثل هذا الزيّ ، فآليت على نفسي ان لا اغشى قبره الا في مثل هذا الزيّ لانه كان يحبه ايام حياته وانكرتماه عليّ) .

ولما سمع الرشيد خبرها خطبها من اهلها وحملوها الى الرشيد وهي لا تعلم ثم علمت الخبر فشهقت شهقة فماتت .

وفيه ايضا[٦٧] عن ابي بكر الانباري ـ اللغوي المشهور ـ عن ابي اليسر قال : دخلت منزل نخاس لشراء جارية ، فسمعت في بيت بازاء بيت جارية تقول :

وكنا كزوج من قطا في مفازةٍ
لدى خفض عيشٍ معجب مونق رغد
اصابهما ريب الزمان فافردا
ولم ار شيئا قطّ اوحش من فرد

فقلت للنخاس : اعرض عليّ هذه المنشدة . فقال : انها حزينة . قلت : ولم ذلك ؟ قال اشتريتها من ميراث ، فهي باكية على مولاها ثم لم البث ان انشدت :

وكنا كغصني بانة وسط دوحة
نشم جنا الجنات في عيشةٍ رغد
فأفرد هذا الغصن من ذاك قاطع
فيا فردة باتت تحن الى فرد

قال ابو السمراء : فكتبت الى عبدالله بن طاهر (قائد وسياسي وشاعر) فكتب اليّ : ان الق عليها هذا البيت ، فان اجازته فاشترها ولو بخراج خراسان . والبيت :

قريب صدّ ، بعيد وصلٍ
جملت منه لي ملاذا

فقالت مسرعة :

فعاتبوه ، فزاد شوقا ،
فمات عشقا ، فكان ماذا

قال ابو السمراء : فاشتريتها بالف دينار وحملتها اليه ، فماتت في الطريق فكانت احدى الحسرات .

وكانت الجارية (ريم) قد احبت (اشجع بن عمرو السلمي)[٦٨] وكان يبادلها اياه ويجد بها وجدا شديدا . وكانت تحلف له انها ان بقيت بعده لم يحكم عليها رجل ابدا فقال يخاطبها :ـ

اذا غمضت فوقي جفون حفيرة
من الارض فابكيني بما كنت اصنع
تعزيك عني بعد ذلك سلوة
وان ليس فيمن وارث الارض مطمع

فاجابته ريم تقول :ـ

ذكرت فراقا والفراق يصدع
واي حياة بعد موتك تنفع
اذا الزمن الغدار فرق بيننا
فمالي في طيب من العيش مطمع
فلو ابصرت عيناك عيني ابصرت
شآبيب جدر غيثها ليس تقشع

وقال فيها ايضا[٦٩] :

وليس لاخوان النساء تطاول
ولكن اخوان الرجال يطول
فلا تبخلي بالدمع عني فان منّ
يضن ، بدمع غير ذا لبخيل
فمالي الى برد الشبيبة حيلة
ولا لي الى دفع المنون سبيل
وان لداني قد مضوا لسبيلهم
وان بقائي بعدهم لقليل

فاجابته ريم :ـ

بكى من صروف خطبهن جليل
ومن ذا به عمرٌ الحياة يطول ؟
ومنّ ذا الذي ينمى على حدث الردى
وللموت في اثر النفوس رسول
وكل جليلٍ سوف يلقى حمامه
وكل نعيم دائم سيزول
لي الويل ، إن عمّرت بعدك ساعة
وان كثير الويل لي لقليل
وتزعم اني لا اجود بعبرة
اذا نجمةٌ قد حان منه افول

---

(٦٧) اخبار النساء ص/١٢٧ ـ ١٢٨ .

(٦٨) من بني سليم . انظر طبقات ابن المعتز ص/٢٥١ ـ ٢٥٢.

(٦٩) انظر اخبار النساء ص/١٤١ ـ ١٤٢ .

ومَنْ ذا الذي ابكي له ، إن فقدته
سواك ، ومن دمعي عليه يسيل
فلا وقيت ريم ، إذا ، ما تخافه
اذا ناب خطبٌ للزمان جليلُ
ولا لقيت يوم القيامة ربها
وميزانها بالصالحات ثقيل
إذا ما سخا قلبُ امرئٍ بمودة
فقلبي بودٍ عن سواك بخيل

ولما مات اشجع ، آلت على نفسها ان لا تاكل طعاما ، ولا تذوق شرابا ، فعاشت بعده اياما ثم توفيت ودفنت الى جانبه .

وما ورد من امثال ذلك كثير في مظان الكتب التي تحدثت عن وفاء النساء ونكتفي بما ذكرنا ، ولعله يفي بالغرض .

وقد جاء في النصوص التي اوردها الوشاء ما يشير او يرد على الوشاء قوله السابق في القيان منها الابيات الآتية :

زعموا خِلة القيان غرورٌ
كلُّ زعْمٍ من المقالة زورُ
قَسَماً للقيان بالعهد اوفى
من جوارٍ تضمهن الخدودُ
انما زخرف المقاليس هذا
حين قلّت صحاحهم والكسورُ
اهلُ هذا الزمان اطوى من الأ
سرِ وكلٌ منْوهٌ مستورُ

ولا ينكر ان دواعي الظرافة والحب في بغداد زمن العباسيين كانت كثيرة ، فقد حفل العصر بكل مظاهر الحضارة ، فن وادب وعلم وتانق وجمال ، وجوار حسان وترف عيش ، ثم صار مغالاةٌ في التزين والتانق ظهر على رقة النساس في خلقهم وظرفهم مما لا يخطر ببال في العصور الاسلامية السابقة .

ولكن الذي وجدنا فيما اطلعنا عليه البحث من سيرة الظرفاء والظريفات ان فيهم غالبية تبذلت في الحب في زمن انطلاق وحرية وترف عيش ، وربما كان بعضها يقتصر على التعبير عن مواقف كان القصد من ورائها حسن المجالسة ، واللطف والمجاملة بسبب روح التحضر ؛ والثقافة التي سادت بغداد وعواصم الدولة العباسية الاخرى وما نهيأ من أسباب الاختلاط بعادات شعوب اخرى والفارسية ، خاصة ، والا فبِمَ تعلل النقول الكثيرة التي لا تعد ولا تحصى مما ذكرته كتب الاخبار والتاريخ ، والادب والفن واخبار النساء وادبهن ؟!

والذي بدا لنا ان ادب المرأة[٧٠] (الجواري والقيان) وان بدا عليه المجون في قسم منه فهو من المصادر التي شاركت في ادب العصر آنذاك وازدادت مع توغل الحضارة وكان له الاثر الكبير في تظرف المجتمع البغدادي .

والى جانب ما ذكرنا فقد كن عاملا مهما في الاحساس الفني ونشر الشعور به وبذلك ساعدن على بعث حركة فنية في الغناء والتصوير والرقص . فالتجمل والتانق في الملبس وتزيين الوجه والتفنن بتسريح الشعر وما يلحق ذلك من ادوات الزينة والحلي يبعث على الاحساس بفن التجمل . وقد تمتعت كثير منهن باصوات جميلة كمريب وفريدة ودنانير وغيرهن . وبذلك بلغن غاية في الملاحة والظرف والفن .

وفي صفة العاشق من الظرفاء ذكر قول المأمون في ابراهيم المهدي[٧٢] :

وجهُه الذي يَعْشَقُ معروف
لأنّه اصفرُ منحوفُ

والعرب تمدح الضَمْر وتذم السمن ، وتنسب اهل النحول الى المعرفة والادب ، وأهل السمن الى الحمق والغدامة وقلة الفهم[٧٣] .

وفي ذكر علامات العشق والتوله بالمحبوب ، قال الوشاء[٧٤] انشدني بعض الادباء ولم يذكر اسمه :

علامة من كان الهوى في فؤاده
إذا ما لقي احبابَه يَتَحيّرا
ويصفَرُّ لون الوجه بعد احمراره
فان حرّكوه للكلام تَلَعْثَرا

ويحسن هنا ان نذكر ابيات ابن الرومي ابي الحسن في وصف ما يختلج نفس العاشق إذ يقول :

---

(٧٠) الوشاء ١٢٧/٢ .
(٧١) ادب المراة في العصر العباسي ص/٢٣٦ .
(٧٢) الموشى ٦٣/١ .
(٧٣) اخبار النساء ٦٢/١ .
(٧٤) الموشى ٦٦/١ .

اری مـا بي عطش شـديد
ولكن لا سبيـل الى الورودِ
امـا يكفيـك انـك تملكيني
وان الخلـق كلهـم عبيـدي
وانك لو قطعت يدي ورجلي
لقلتُ من الهـوى احسنتِ زيدي

وقال ابن الرومي في فتاة[٧٥] :

غيـداء من ماء الشباب الآغيـد
كانمـا ترنـو بعيني فرقـد
تضـرب متنيها بوحْف اسـود
دافعتها فمـا انقَتْني باليَـدِ

وقد تطارح الظراف والظريفات الشعر في مجالس اللهو والطرب متغزلات متوجدات . ومنه قول عنان :

وما زال يشكو الحب حتى رايتـه
تَنَفَّس في احشائـه وتكَلَّمـا

قالت :

ويبكي فابكي رحمـةً لبكائـه
إذا ما بكى دمعـاً بكيت لـه دما

وجرت معارضات بين الشواعر والشاعرات الظريفات نورد منها هنا :

ما ذكره ابن الجوزي[٧٦] : قال المتبي : سمعت الفضل بن ابراهيم يقول : مرّ شاعـر بنـوة فاعجبه شانهن فجعل يقول :

إنّ النسـاء شياطين خلقن لنـا
نعـوذ بالله من شـر الشياطين

قال فاجابته واحدة منهن تقول :

إن النسـاء رياحـين خلقن لكـم
وكلكم يشتهي شـم الرياحـين

وقد عشق اكثر العرب[٧٧] وكتبوا في ذلـك اروع المعاني والطف الشعر وارقـه وفي عصـر الظرافة والتظرف في بغداد كان منهم كثير ، وممن عرفوا به العباس بن الاحنف عشق (فوز) وابو العتاهية عشق (عُتبـة) وابو الشيص عشق (امامة) :

ومن قول (قبيحة)[٧٨] بخط (فضل) في هذا الباب[٧٩] :

لاصبرنّ على مـا بي مـن المَضض
حتى اموت ولا يَشعُر بي النـاس
ولا يقـال شكا من كان يعشقهُ
إنّ الشكَاة لمن يهوى هي الياس
ولا ابـوح بسـرٍّ كنت اكتمـهُ
عند الجليس اذا ما دارت الكاسُ

والحب فيه عند الظرفاء مرارة وحلاوة وهو مـع ذلك مستحسن عندهـم قال الكميت بن زيد[٨٠] :

الحُبُّ فيـه حلاوة ومرارة
سائل بذلك من تَطاعَمَ او ذاقِ
ما ذاق بؤس معيشـةٍ ونعيمها
فيما مضى احَـدٌ اذا لم يعشقِ

وقد ادلى الجاحظ بدلوه في حب القيـان والاماء فقال : انما هو (طمع وعرض)[٨١] ، ولكنه عاد في موضع آخر الى اقرار بالواقـع فذكر : (وليس هذا مما يُذم لهن ولكنه من فرط المدح ، فليس بحسن هاروت وما روت ، وعصا موسى ، وسحرة فرعون الا دون ما يحسنّه)[٨٢] .

والعبارة فيهـا بيان كبير لا تحتـاج الى تفصيل .

وقد قال بعض الظرفاء في ذم هوى القيان :

فهذه فضل تقول[٨٣] :

يا حَسَن الوجـه سيءَ الادب
شِبْتَ وانت الغـلام في اللعـب
يا وَيْل ان القيـان كالشرك الـ
منصـوب بين الغـرور والعطب

---

(٧٥) الظرفاء ص/٥٠ .
(٧٦) الاذكياء ص/٢٢٠ ، بيروت .
(٧٧) ذكر الوشاء ٦٩/١ انه افرد كتابا لذكر العشاق والمتيمين واخبارهم وملحهم واشعارهم وصفاتهم اسماه (المقتفي) ولا ندري ما تزال نسخه موجودة ام لا .

(٧٨) هي ام المعتز جارية المتوكل وزوجه . عاقلة ، فاضلة . شاعرة سميت قبيحة لشدة جمالها توفيت ٢٦٤ للهجرة .
(٧٩) ستاتي ترجمتها في (ادب الظرفاء) .
(٨٠) الوشاء ٨٧/١ .
(٨١) الوشاء ١١٦/٢ .
(٨٢) رسالة القيان للجاحظ ص/٦٣ .
(٨٣) الوشاء ١٢٢/٢ .

وقول احمد بن غزال لنفسه[٨٤] :

اذا تعرّضْتِ للقيـــان
فمِثْـــلِ الفقـــر بالعَيْـــان
واعـزم على قلـــة اســـافا
امَضُّ من طعنـــةِ السِّنان

وابيات اخرى كثيرة .

ويبـــدو ان الظرفاء فضلوا حب الجواري من غير الاماء المقـــدّمات[٨٥] على القيان كثـيرا لاننا لم نجد من النصوص في ذم حب الجـواري فيما وقفنا عليه ما بلغ من التعرض والانتقاد كحب القيان والاماء فانه كثير ونصوصـــه الشعريـــة كذلك .

والذي يبدو فان التدرج من البساطة الـى التكلف ومن الاناقة الى التانق رافقه تحـــول من الظرافة الى التظرف والحرية والانطلاق ولقد كان خلفاء بني العباس كلهم[٨٦] يحبون مجالس المنادمة والطرب والغناء . وان تباينوا نسبيـــا ، وكانت القيان يدخلن متزينات الى الدواوين وليس هناك من منكر ولا عائب[٨٧] . وشاعت الزينة والتزويق في كل شيء .

ولذا يمكن القول ان من بين هؤلاء الظراف من التزم بسنن الظرافـــة الاولى او في بدايتهـا ونشوئها واختار البعض الآخر الانغمار والانغماس فيما هيأ له العصر من ملذات وغلب عليه ذلك فلم يقنع بالبسمة والنظرة والحديث والنجوى فتحوّل الى القبلة واللهو والاجتماع في النوادي والمقاصف، والاديرة متنادمين سامرين ساهرين شاربين عابثين ولسان حالهم يقول[٨٨] :

وكلنـــا مـــن طـــربٍ
يطـــيرُ او يكـــادُ
ولهـــونا لذيـــذ
لم تلهُهُ العبـــادُ

ومنه : ما جرى بين حماد وسعاد[٨٩] :

قبّليني سعـــاد ، باللـــه قبلـــة
واسْليني لها ، فديتك ، نحلـــه

فيدفع حماد سعاد هذه ، ويقول :

فاجيبي وانعِمي وَخُلِّ البـــذ
ل واطفي بقبلـــةٍ منـك نحلـــه

ومما ذكره الاصفهاني[٩٠] :

كان لابي الشيص[٩١] جارية سوداء اسمهـا (تبر)[٩٢] وكان يعشقها وفيها يقول :

لـم تنصـــفي ياسَمِيّةُ الـذهب
تَتْلِـف نفســـي وانت في لَعِب
يابنـــة عمّ المســـك الذكـيّ ومَنْ
لـــولاك لم يُتّخَذْ ولـم يَطِب
ناسَبَكِ المسك في السواد وفي الريـ
ـح فاكـرِمْ بـذال مـن نَسَـب

وكان الشاعر ابن المعتز من بين الشعراء الذين انطلقوا او فازوا باللذات وعبروا عن مشاعرهم في ذلك .

اذ يقول :

فقد كان دابي جنة اللهـو والصبا
وما زلت باللذات والعيش لعّابا[٩٣]

ولقد سحر الحب هذا الامير وصرعه الهوى والشباب . ولصريع الغواني : مسلم بن الوليد دلاء ذكرها لا يتسع له المجال نذكر قليلا من قوله :

هل العيش إلاّ ان تروح مع الصبا
صريع حُمَيّا الكاسِ والاعينِ النجل[٩٤]

وله ايضا :

ان شئت غاداني صبوح من الهوى
وإن شئتُ ما ساني غبوق من الخمر

---

(٨٤) الوشاء ١٢٢/٢ .
(٨٥) الجارية : الشمس والسفينة : واستعير مجـازا الى الجواري من النساء / اللسان / جرى القينة : العبـدة والامة غنت ام لم تغني ، ويقال في جمعها قيان وقينات اللسان : قين .
(٨٦) التاج في اخلاق الامم والملوك ص/٢٣ - ٢٨ .
(٨٧) رسالة القيان ص/٦٢ .
(٨٨) ظرفاء النجد ص/٣٩ .
(٨٩) ظرفاء النجد ص/٤٠ .
(٩٠) الاغاني ٢٢٠/٢٠ - ٢٢١ .
(٩١) محمد بن رزين ويكنى بابي جعفر ، وقد عاصر ابا نواس . الاغاني ٢١٩/٢٠ ، اعلام النساء ١٦٤/١ .
(٩٢) اعلام النساء : ١٦٤/١ .
(٩٣) ديوانه / ٩ . الظرفاء ص/٤١ .
(٩٤) الظرفاء ص/٤٢ .

وعرب لها في هذا الشعر ضلع كبير فقد قيل فيها[٩٥] :

قاتل الله عريبا
فعملت نعلا عجيبا
صبرت حتى إذا ما
اقصد النوم الرقيبا
فتدلت لحبيبه
فتلقاها حبيبا
جذلا قد نال في الد
نيا من الدنيا نصيبا

وقول مسلم بن الوليد[٩٦] :

إنّ ورد الخدود والاعين النجـ
ـل وما في الثغور من اقحوان
واسوداد الصُدْغين من واضح الخـ
ـدّ ، وما في الصدور من رمان
تركتني لدى الغواني صَريعا
فلهذا ادعى : صريعَ الغواني

وفي قصور الخلفاء والوزراء كانت دواعي الحب واللهو كثيرة لدى الظرفاء مما جعلهم يولعون بالاقبال عليها اكثر فقد لوّنت الحياة امامهم وبدت لهم بحلة قشيبة مغرية فاقبلوا يردون من مناهل البهجة ما شاءوا وقد تعلقت بذلك مظاهر كثيرة تبدو ليست جوهرية ولكنها ذات اثر فعال في الظرفاء البغداديين نذكر منها .

ازياء الظرفاء :

(احسن الزي عندهم ما تشاكل وانطبق وتقارب واتفق)[٩٧] . . هذا يعني ان لهم ذوقا فيما يلبسون ، وانهم متمدنون متحضرون ، ذلك ان ، انسجام الالوان وعدم تنافرها يوحي للناظر راحة في النفس وطمانينة ، وهو دليل اناقة وحس ذواق سليم وميل فني .

والرجال من الظراف يلبسون من الالوان نقيها ناعمتها ، مثل الدبيقي . منسوب الى دبيق قرية من دمياط بمصر[٩٨] وهو المنقل من الثياب ، والفلائل وهي شعار يلبس تحت الثوب وتحت الدرع[٩٩] والسفاق الكثيف . ودراريع البَرْدَجِرْد هي بلدة بين الكرخ وهمدان والاردية المحشاة المدنية ، والجباب والطيالسة التيسابورية والاكسية الفارسية الخزوز الكوفية وكل ما اشبه ذلك وقاربه[١٠٠] .

وفوق هذا فهم نظيفون وهذا عنوان الظريف ودليل مظهره الانيق اذ لا يلبسون من الثياب المغسول الوانها بل النقية الصافية غير مصبوغة بالزعفران ولا مغموسة بالطيب لان هذا من لبس القيان والاماء .

وهم يلبسون من النعال الزيجية والمشمرة اليمانية والمختمة بالخفاف ويشرك فيها الاسود بالاحمر والاصفر بالاسود ، والجوارب الخز المرعزي والقز ويعيبون لبس الاحمر منها .

ومن النعل يلبسون الابريسمية والخزية ، ومن المطارف القطنية والمنقوشة الاردنية .

ويتختمون بالعقيق الاحمر ، والفيروزج ، الاخضر ، والفضية المحرقة ، واليمانية السود . والمضروبة المتوكلية . ولا يتختمون بالذهب لانه من لبس النساء ، والصبيان والاماء .

ويتعطرون بالطيب والمسك المسحوق المحلول بماء الورد . ويستعملون العود المعنبر بماء القرنفل والعنبر البحراني والكافور المحرق المخلوط بعبير المسك ويتجنبون طيب النساء .

ولا يستعملون من الطيب ، ما كانت رائحته شديده السطوع .

ولهم في اساليب اكلهم نظام خاص فكانوا ، يتبعون نظام الاطباق كل لون في صحفة خاصة ويرفع الطبق ، ويؤتى بغيره . وقد اترفوا في استعمال الملاعق حتى كانت من الفضة البلور . وقد تكون من الزبرجد[١٠١] ولا تستعمل الا في لقمة واحدة .

ولوائدهم كما يبدو آداب واصول فاذا قاموا الى الطعام غسلوا ايديهم بالماء والطيب ، وربما مسحوها بالادهان العطرة لئلا يتمكن الزفر من مسامها . وهم لا يضحكون ولا يثرثرون في اثناء الطعام ، ويصغرون لقمهم ويبعدون عن الشره والنهم . ولا ياكلون القديد ولا يتبعون مواضع الدسم ولا يمشمشون (يمصون) العظام ولا يلطمون

(٩٥) الظرفاء ص/٤٢ .
(٩٦) الظرفاء ص/٤٢ .
(٩٧) الوشاء ١٦١/١ .
(٩٨) معجم البلدان ٥٤٨/٢ طهران .
(٩٩) انظر نشوار المحاضرة الجزء الاول .
(١٠٠) الوشى ١٦٠/١ - ١٦١ .
(١٠١) قال الجاحظ في التبصرة ص/١٤ : خير الزبرجو ، الشديد الخضرة الصافي .

اصابعهم ولا يعجلون في مضغهم ، ولا بجانبي الشدقين ، ولا يجاوزون ما بين ايديهم ولا يأكلون شيئا من الكواريج والصحناة (السمك الصغير المملوح) ، ولا شيء من الكوامخ (المخللات من الطعام) ؛ وقد تأكل ذلك المتظرفات ولا يأكلون في النهار اكثر من اكلة ، ولا يتحفزون لمجيء المائدة قبل ان توضع ولا يكثرون من اكل النقل[١٠٢] . ويتجنبون الاكل البارد كالفجل والحرف والكراث والهندبا (بقل يؤكل) . ولا يأكلون مما يغير لون الاسنان او ما يحدث رائحة وتغير كالثوم والبصل .

ومن الفاكهة يأكلون انواعا كثيرة من التمر كالارطاب ، والمشمش والنبق والعناب والخوخ والاجاص .

وكان الخلفاء والظراف يحلون موائدهم (بالبزماورد)[١٠٣] اي لقمة الخليفة كما كان يسمى في العصر العباسي ولقمة القاضي .

والبزماورد يتخذ من اللحم والبيض في بغداد وذكر الجاحظ[١٠٤] انه مما يُعجب به اهل خراسان ويتخذونه من فراخ الزنابير .

ويرغبون في السكباج ويسمونه مخ الاطعمة ، وسيد المرق يؤكل حارا وباردا ويتزود منه في السفر . وفي الشتاء والصيف .

وكان السمك مرغوبا فيه وكبود الدجاج كذلك[١٠٥] .

زي الظريفات[١٠٦] :

اما زي الظريفات فالحديث عنه يطول نجتزيء بعضه من بعض فنذكر انهن لا يقلّ أناقة وترفا وظرفا في لبسهن بل كان ما يلبسن مميزا عن الظرفاء في اللون والنوع فمن الالوان الاسود والاصفر وما لا يصبغ الا ما ازرق واخضر ، والورّد والاحمر ، يتخذن ذلك من الحرير والقز والديباج .

والحمرة والسواد والزرقة عندهم من لبس الارامل والحداد والاحمر عندهن دليل الفرح والسرور .

ويلبس الاردية الرشيدية . والغلائل الدخانية والعصب الملون والحرير المعين الموشى بالذهب قيل ان (زبيدة) كانت تلبسه . ومن السراويل يلبسن الطويلة البيضاء ، والكمام المفتوحة . ويتمنطقن بمنطقة من ذهب ، وبعضهن يتنقبن ، قبل ان (متيّم)[١٠٧] الهاشمية لا تخرج الا متنقبة وانها اول من عقد من النساء في طرف الازار زنارا وخيط ابريسم .

وما تنقله وتصفه المراجع من زركشة الالوان وحسن صنيع اللابس يوحي بصور فنية جميلة فكن ينقشن عليها ابياتا شعرية يخترنها ولهن مراد من ورائها .

ومما زاد ظرفهن ظرافة انهن تفننن في انواع الملابس ، فقد لبسن العصائب وكانت آية في الفن والنقوش وكتابة رقيق الغزل والتوجد ، عليها . وكانت (علية) بنت المهدي ، قد ابتدعت هذه البدعة الحسنة فقد كان في جبينها فضل سعة تسمح به فأخفته بلبس العصائب المكللة بالدر والجوهر ، فقلدتها الظريفات في ذلك فصار تقليدا (تقليعة وموضة مما يدعوه الناس اليوم) وينقش عليها الشعر وينثر اللؤلؤ ، وانواع حجوم الدرر وغيره .

حدّث علي بن الجهم قال : حضرت مجلس الظرفاء فخرجت علينا جارية كأنها تمثال ، وعليها عصابة قد ارسلت طرفين في صدرها مكتوب :

من يكن صبّاً وفيّاً
فزمامي في يديه
خذ مليكي بعناني
لا انازعك عليه

فوثب ابن الجهم حتى اخذ بطرفي العصابة وقال : انا والله صبّ ، واوفى خلق الله لحب[١٠٨] .

وكتبت اخرى على وشاح[١٠٩] :

اغيب عنك بودّ لا يغيره
ناي المحل ولا صرف من الزمن
تعتلّ بالشغل عنا ما تكلمنا
الشغل للقلب ، ليس الشغل للبدن

---

(١٠٢) انظر الديارات ١٦٧ ـ ١٧١ ، وقد اورد الوانا كثيرة .
(١٠٣) الحيوان ٤/٤٤ ، شفاء الغليل / ٩٨ .
(١٠٤) الخلفاء والخلعاء (مآكل الخلفاء) ص/٨١ .
(١٠٥) ثمار القلوب ص/٤٩٠ .
(١٠٦) الوشاء / ١٦٢ ـ ١٦٣ ، وظرفاء النجد ٥٢ ـ ٥٤ .
(١٠٧) المستظرف ص/٦٢ .
(١٠٨) الظرفاء ص/٥٨ .
(١٠٩) الظرفاء : ٥٩ .

وعلى طراز الرداء[١١٠] :

آفل النـــاس في الدنيـــا نصيبا
مُحيبٌ قـــد نأى عنـه الحبيب

واتخذن القلانس والتيجان ونقشن عليهـــا ابياتا من الشعر ايضا وصفن التيجان من الذهب على شكل نرجس مشـــوب بالفضـــة . كتبت (عَلَل) على قلنسوة من ديباج[١١١] :

ما يَمَلُّ الحبيبُ طول التجنّي
لبلائي بـــه ، ولا الصـــدّ عني !

ولبسن الزنانير والنعال والخفاف ونقشن عليهـــا طرائف . كتبت (طريفـــة) على نعلها بالذهب[١١٢] :

لم الق ذا شجن يبـوح بحُبّـــه
إلا حبـــتك ذلـــك المحبـــوبا
حـــذراً عليـك ، وانني بك واثق
الا ينال ســـواي منك نصيبـــا

وقد افتنن في تصفيف شعورهن وتسريحها وترجيلهـــا وكن يضمن المسك والعنبر ، ولهـن وصيفات تزينهن وتمشط شعورهن . وجدائلهن كن يتركنها تتدلـى على اكتـافهن . وهؤلـيـــاء هن (الغلاميـات) . وقـد رؤي المأمـون يـــوم الشعانين[١١٣] ؛ وبين يديه عشرين وصيفة مزنرات تزين بالديباج وزر من الاصداغ فقال احمـد بن صدقة فيهن :

ظبـــاءٌ كالدنانـــير
مـلاح في المقاصـــير
وقـــد زرّفن اصداغا
كاذناب الزرازير[١١٤]

وربما جمعن شعورهن كالجمة السكينيـــة نسبة الى سكينة بنت الحسين ـ اي جمعنه الى الخلف ـ وكانت العباسة اخت الرشيد تفعـــل ذلك ، وهو مستملح . وقد يجعلن الجمة مرصعة بالماس والزمرد .

اما الطيب فقد تطيبن بانواع منه كثـــيرة منها : العطور البرمكية وعطور الازهار كالزنبـق والبنفـــج ولا يتعطـــرن بعطـــور الظرفاء مـن الرجال . ولهن الزعفران والقرنفـــل والكافـــور وعطور الورد[١١٥] .

اما الحلي فهي من الجوهـــر والدر ومخانق القرنفل تجلب اليهن من كل حـدب وصـــوب . والقلائد الذهبيـــة . واللؤلؤ والحب الاصفـر ، واصناف الياقوت[١١٦] .

اما الخواتيم فمن الماس والعقيق ولا يصنعنها من الفضة . وكانت تقدم اليهن الهدايا ما غلا منها ، ويتقرب بها اليهن ؛ الخلفاء والظرفاء ، من الجواهر وانواع غريبة من الحلي والجواهر فقـد اشترى الرشيد جوهرا بمائتي الف دينار لدنانير البرمكية لاسترضائها .

واغضب الواثق (فريدة) فاسترضاها بحُقّ فيه عقد جوهر ما رؤي مثله لخليفة[١١٧] .

اما الازهار فقـد اهتممن بهـــا وفضلنها ، وتزين بها فجعلنها اكاليل ، وقد اعجبن بالبنفـــج، والورود خاصة ، يؤثرنه على غيره من كل ريحـان وطيب واعجبت (متيّم) بالبنفـــج حتى انها من شدة اعجابها ، كان لا يخلو من كمها ؛ وافرطوا في نعت انواع الورود ووصفهـــا وتهادبهـــا وزهت مجالسهم بها ، وغطيت برك قصور الخلفاء بهـــا في اوقات الاعراس والافراح ، وتزين البيوت بهـا وعنوا بالنورد عناية خاصة وشبهوا الخدود بـه . قال الشاعر (وهـو خالد بن يزيد الكاتب المتوفى ـ ٢٦٢هـ) :

عشـــيّة حَيّاني بوردٍ كأنـــه
خـدودٌ اضيفت بعضهن الى بعض
وذلّ وفعل الخمـر في حركاتـــه
فمال نسيم الريح بالغُصُن الغضّ

وقال آخر :

يضحـك الوَرْدُ الـى وَرْ
دٍ بخـــدَّيك مُقيـــم
جَمَعَـا شـــكلين وَفْقَيْـ
ـنِ لالحـــاظِ النـــديم
غـير انّ المســـك اولـــى
بك في كـــل نســـيم

(١١٠) نفسه .
(١١١) نفسه .
(١١٢) الظرفاء ص/٦٠ .
(١١٣) عيد من اعياد النصارى .
(١١٤) الظرفاء ص/٦٢ .
(١١٥) ادم متز الحضارة الاسلامية ٢/٣٠٥ .
(١١٦) انظر الجماهر في معرفة الجواهر : البيروني . ص/٢٢ .
(١١٧) المحاسن والمساوىء ٢/٥٤٢ .

وتطيّر بعضهم . قال الوشاء : (خبرت أن ثينة اهدت الى ربيط لها غصن آس فسر بـه فقال :

والآس يبقى وان طال الزمان بـه
والوَرْدُ يَفْنى ولا يبقى على الزمن

واهدت له وردا فتطير منه وقال :

انتِ وردٌ وبقـاء الـ
ـورد شهرٌ لا شهـور
يذهب الوردُ ويَفْنى
والـى الآسِ نصـير

فكتب اليه بعض اخوانه :

وسُرَّ بالآس الذي اهـدت لـه
ثم لما اهْدَت الوردَ جَـزِع
ذاك انَّ الآسَ باقٍ دائـمٌ
ولأن الوردَ حينـاً ينقطـع

والسـواك استعملوه لتنظيف اسنانهـم وتبييضها بالغدوّ والعشيّ على الريق وقبل النوم (وهو من شجر الاراك ، واصـول السـوس) واعتنوا به وحافظوا عليه في اباريق خفاف وابعدوه عن كل ما يفسد من غبار . فالسواك عند الظرفاء مطهرة للفم مرضاة لنرب[119] .

وقـد تهادوا بالمساويك وكانوا يتخـذون العصائب لحفظها ، قال العباس بن الاحنف[120] :

طال ليـلي بجـانب الميـدان
مع جَوَاري المهديّ والخَيْزُران
ارسلتْ بالبنان قـد مَضْغَتْهُ
بين تفاحَتَيْن في ريحـان
وبمسواكهـا الذي اختـاره الا
نة لعينهـا من طيب الاغصـان
فكأني وَجَدْتُ ريحـاً من الفيرُ
دَوْس فاحَتْ من ريح ذاك المنبان

ومن قول بشار بن برد في المسواك :

يطيب مـواكهـا من طيب نكهتهـا
وإنْ أَلَمَّ بجلـدٍ جلْدُها طابا

وقال ايضا :

تَسَوَّكتْ لي بمسواك لِتُعْلِمَني
ما طَعْم فيها وما هَمَّتْ باصلاحِ
لمـا اتاني على المسواك ريقتهـا
مثلوجَـةً كزُلال المـاء بالراحِ
قَبَّلْتُ ما مسَّ فاها ثم قلتُ له
يا ليتني كنت ذا المسواكَ يا صاحِ

اقول لقد بلغ فن التجمل عندهم حدّا بعيدا، والظريفات اختصصن به اكثر . ولنكتفِ عن ايراد التفاصيل بذكر نص من رسالـة لابن عبـدون البغدادي[121] تبين ما بلغته من تأنق وبراعة في هذا الجانب يقول : «وكم من سمراء كمدة بيعت بصفراء مذهبة ، وكم جعلوا العين زرقاء كحلاء ، وحمروا الخدود المصفرة وسمنوا الوجوه المقعقعة . وكبروا الفقاح الهزيلة ، واعدموا الخـدود شعر اللحى ، واكسبوا الشعور الشقر حالك السواد ، وجعدوا الشعور البسيطة وبيضـوا الوجـوه المسمرة ، ودملجوا اسيقان المرقـة ، ورطلوا الشعـور المرطة ، واذهبوا آثار الوشم والنمش والحكة .. وطولوا الشعور بوصلها من اطرافها بشعور من جنسها . وكانـوا يزيلون روائح الانف بالسعوط بدهن البنفسج والنيلوفر ونحـوهما . ويجلون الاسنان بالسواك بالاشنان السكر وسحيق الصيني او الفحم او الملح المدقوق وكانوا يزيلون الشعث من اصول الاظفار بغسلها بالخل والعسل او دهن الورد والبلوز المر .

« وكن يخضبن حواجبهن واطرافهن ، ويصبغن بصبغ احمر شفاههن فان كانت الجارية بيضاء ، فبالخضاب الاحمر ، وان كانت صفراء فبالاسود ، ويجرون الصناعة مجرى الطبيعة في كشف الضد بضده . »

الهدايا وقد عنوا بها وكانت من سجاياهم وكانوا بها ظرافا ، واهـدى العشاق لمعشوقاتهم واهدين كل معجب انيق جميل ، فالثياب والازر والعصائب المرصعة وخواتيم الياقوت المنقوشة منها بالتمر وعود الهندي والنـد والمسك والعنبر ونضود الرياحين والفـواكه وصنوف الطعـام واستخدم الخلفاء الظرفاء الهدايا سبيلا لاسترضاء جواريهم ومن لفين الحظوة لديهم من الجـواري بتقديم اثمن انواع الجواهر والدرر[122] .

(118) الوشاء في الوشي ١٨٢/٢ .
(119) الوشاء ١٨٤/٢ .
(120) الابيات من الوشي ١٨٤/٢/١٨٥/١٨٦ .
(121) الظرفاء ص/٦٦ — ٦٧ .
(122) انظر ص/٥٢ من هذا البحث ص/٥١ .

ومن ظريف ما كان يهدى نروي لك هـذه الهدية الطريفة التي اهدتها (شجرة الدر) وقد كان المتوكل يميل اليها كثيرا فهي من حظاياه المقربات فلما كان يوم المهرجان جاءته بعشرين غزالا تربية ، على كل غزال خرج صغير مشبك حرير فيه المسك والعنبر والغالية واصناف الطيب ، ومع كل غزال وصيفة بمنطقة ذهب ، وفي يدها قضيب ذهب في راسه جوهرة . فقال المتوكل لحظاياه : ما فيكن من تحسن مثل هذا وتقدر عليه) فحسدتها وعملن على قتلها بشيء سقينه لها فماتت(١٢٣) .

ومن الهدايا الطريفة ايضا ما حدث في سنة (٣١٠هـ)(١٢٤) ان هدية وصلت الى ابن المادراني الحسين بن احمد من مصر وهي بغلة وممها فلو ، وغلام طويل اللسان يلحق طرف لسانه انفه .

واهدى ابو دلف الى عبدالله بن طاهر يوم (الفصد) هدية فجمع ما في السوق من الورد وارسله له(١٢٥) .

وكانت (محبوبة) جارية المتوكل قد قدمت له هدية من ابن طاهر(١٢٥) .

ولعل في ذكر الوان الهدايا بيان لاحوال الظرافة وتعدد سبلها وانعكاس لاحوال اجتماعية كثيرة .

وتطيروا من بعض الاشياء او من اسمائها او معانيها . فقد تطيروا من : الاترج لان باطنه خلاف ظاهره مختلف الطعم والرائحة .

السفرجل لانه يبدا بالسفر

الشقائق لانه يبدا بالشقا

والياسمين لانه يبدا باليأس والاسى كذلك .

والسوسن اسمه السوء . ومن الجوز والموز . والبطيخ اذا انصدع وانكسر واحبوا : الرمان لان معناه الوصل قد آن ، وانبنفسج لان معناه فداء النفس . وبالغوا في تفضيل التفاح وكانت (محبوبة) ترسل التفاح الى حبيبها وعليها اثر عضتها وهي علامة حب . قال ادم متز في هذا انه من عادات الرومان(١٢٦) .

واعجبوا بالخوخ وشبهوا الخدود به ، ولكن لا يعدل التفاح عندهم شيء فيه تهدا اشجانهم وعنده يضمون اسرارهم(١٢٧) ، وليس في هداياهم ما يعادله ؛ قال الحكمي :

تفاحة جاءت وقد علقت
وركبت بالورد والآس
اشرب من كاسي على ريحها
بالرغم من اهلي وجلاسي

وقال آخر :

تفاحة من عند تفاحة
قريبة العهد بكفيها
احبب بها تفاحة اشبهت
حمرتها حمرة خديها

وقال اخر :

تفاحة حمراء منقوشة
ركبتها في خضرة الآس
فلم تزل في كف ندمانينا
تدور من كاس الى كاس

وقد يكتبون بماء الذهب كالآتي(١٢٨) :

قبل ان تهدوني فخطوا
في سطراً من ذهب
انني اعطف متن صـ
ـدٍ ليمتحني ذا كرب

وكتبوا عليه ونقشوا كثيرا من لواعجهم وقد طاوعتهم طبيعة التفاح . قال شاعرهم على لسان تفاحة حمراء :

انا حمراء دعوني
للمحب وحبيب
وكلوا ذات بياض
اكلها غير معيب

وكتب على اخرى :

لي طراوات وريح
ثم ماء ونضاره
ليس للياقوت فضل
كل ياقوت حجاره

(١٢٣) الخلفاء والخلعاء ص/٧١ .
(١٢٤) المنتظم ٦/١٦٧ .
(١٢٥) انظر الخلفاء والخلعاء ص/٧٠ .
(١٢٦) ادم متز : ٢/١٦٨ .
(١٢٧) الموشى ٢/٢١٨ .
(١٢٨) النصوص مختارة من الموشى في الجزء الثاني .

ولقد امر عضد الدولة ان تنقش على خواتيم الجواري ابيات السلامي(١٢٩) :

مرقومة الجنبات بالبدع التي
لم يهتد قط من الربيع لروضة
كتمت روائحها ، فلما عذبت
بالنار فاح نسيمها فاقرت

اما **شرابهم**(١٣٠) : لا يشربون من الشراب الا اجوده ، مثل المشمس والزبيبي ، والمعسل ، والمطبوخ ، ولا يشربون ما ثخن وما اشتد ولا لمكدر منه الا ما صفا شرابه ، ويترفعون عن شرب العامة والرعاع ، وشرب السوقة ، والاتباع ؛ ولا يتنقلون على شرابهم بالاشياء الرذلة . بل ان الظرفاء يتنقلون بالبندق ومقشر الفستق والملح النفطي والعود الهندي والتفاح الشامي ويضعونها في اجمل الاواني الزجاجية النقية . ولهم زي خاص في مجالس الشراب فالالوان الزاهية والتي لا يلبسونها في الغالب تلبس عند الشراب زيادة في الظرافة وتحلية لمجلس الشراب ، ولكي يزدادوا انسا على انس ومرحا على مرح .

الظرف والاديرة(١٣١)

كان للاديرة اثرها في ظرافة الظرفاء من الادباء والشعراء فقد اتاحت لهم فرصا واجواء ذات فضل ، في العصر العباسي ، فقد وجدوا في ابنيتها العامرة ، رياضا ترتاح اليها نفوسهم ، ففي مواقعها طبيعة جميلة مؤنقة ، وهواء عذب ، وماء زلال ، وشراب ميسور وخدمات جليلة من الديرانيين ، ويبدو ان الاديرة في داخل بغداد او حوانيها او في خارجها اختير لها جميعا من الطبيعة اجملها واحسنها(١٣٢) .

والاديرة هذه منها الصغير البناء ومنها العالي العمران الواسع الكبير ويشترط فيها او في كل منها ان تكون منه كنيسة يصلي بها (الديرانيون) وفيها صوامع تستوعب الرهبان .

وهذه الاديرة لاتخلو ، والكثيرة منها على وجه الخصوص ، من (خزانة كتب) يجد فيها الرهبان ما ينشدون من التآليف التي تتناول مواضيع دينية وادبية ، وعلمية مختلفة ، كالكتب المقدسة وتفاسيرها والفلسفة واللاهوت وسير الشهداء والقديسين ؛ والادب والشعر وغير ذلك فهي حافلة بالكثير الوفير زد على ذلك ان فيها دور ضيافة وبيوتا واسعة الرقعة حتى ان بعض الخلفاء والملوك والاعيان كانوا ينزلون بها فيثنون عليها . وتحيط بها بساتين الكروم والرياحين مما يبهج النفس ويسرها وبشرحها .

ادب الظرفاء

زهت بغداد في العصور العباسية وتظافرت كل الاسباب لما يسمى بـ (ادب الظرفاء) فتقدشمخت الحضارة في بغداد ، وسما العمران ، وعجت بالعلماء والشعراء وتنادى هؤلاء في كل حدب وصوب ، وكان بين الادباء الظرفاء ، والشعراء الخلفاء والوزراء ، وكثر الندامى في قصورهم وشهد هذا العصر وجه الشاعر (النديم) الذي لم يكن عرف سابقا ، .

وهذا الشاعر النديم الظريف شاركته الظريفات من الجواري المتأدبات في قصور منعمة ، مترفة يعجز الوصف عن بيان ايات الفن في ريازتها ، فمن برك ، وحدائق زاهية ، وابهاء مفروشة بكل غال انيق ، وتحف عجيبة غريبة مجلوبة ، وجدران مكسوة مزوقه وشذروانات افتنت فيها يد ، المفننين فجعلتها من ايات الفن تبهر الناظرين .

وتناثرت التماثيل في كل مكان ، من ستور حمر ومصفرة ، ومجالس وازاهير مشرقة ، وابواب عظام مسمرة بالذهب والفضة . ونفيس الجواهر وفرش مختلفات الانواع والاصناف وامتدت على الارض فرش زركشت وطرزت بالحرير ، واذا ، فرحوا فلا تسل عن البذخ ولاتحفل بالدنانير ولا تشدهك الاناقة(١٣٣) ، وغيره مما يروع القاري حتى لنظن ذلك الترف ، وذلك البذخ ضربا من الخيال(١٣٤) لولا ما يؤكد ذلك ويقطع الشك باليقين مما تدعمه وتتناقله المراجع والشروح في بيان دقائق كل شيء .

كل ذلك جعل ادب الظرفاء وهم يمثلون الطبقة الارستقراطية يملوه الترف والرقة في التعبير ، والسلاسة في الطبع ، فكان شعرهم رقيقا ونثرهم عذبا منسجما مع ما طبعوا عليه من ظرف الروح ،

---

(١٢٩) انظر : المجتمع العراقي في شعر القرن الرابع : (رسالة ماجستير) ص/٢٤٥ .
(١٣٠) الوشي ١٧٢/٢ .
(١٣١) واحدة الدير : وهو خان النصارى . اللسان والتاج / دير .
(١٣٢) يراجع كتاب الديارات ففيه تفصيل كثير .
(١٣٣) الظرفاء ص/٢ .
(١٣٤) انظر تاريخ الادب العربي في العصر العباسي ، ابراهيم ابو الخشب ص/٦٩ .
وانظر ادم متز في الحضارة الاسلامية ١٩٢/٢ . وتاريخ الادب العربي : عباس العزاوي ص/٦ .

وملاحة اللسان ، وشعرهم رشيق الاوزان خفيفها مغنى صالحا لذلك في اغلب الاحيان ، معبرا عن المناسبات التي قيل فيها خير تعبير ، واصفا لواعج من احب منهم بصدق .

هذا الى جانب ما اتفق فيه ادبهم مع شعراء العصر كافة ان نظرنا الى كونه جزءا من ادب العصر متصفا في ميل الظريف البديع كالطباق والجناس والمقابلة ، والتورية وغيرها ، وانت تجد مصداق مافلنا في الامثلة الشعرية والنثرية متناثرة في اجزاء البحث .

وفي ذلك من قول فضل . الشاعرة الظريفة :

يَصُدُّ وادنو بالمودة جاهدا
ويبعد عني بالوصال واقرب[١٣٥]

ورصد الشاعر الظريف المعاني طريفها ولطيفها وربما يبدو غريبا ، وفيه صور حسية واضحة ، وفيه الانفعالات والعواطف وكل ما هو منسجم مع التظرف بعدئذ .

واللفظ عند الظرفاء مختار ، رقيق ، معبر ، موظف بذكاء وفطنة يشد ازر المعنى العام ويبين المراد .

واغراضهم فيما نظموا وترسلوا دائرة في فلك ليس ببعيد عن الشعر من حيث العموم ، ففي الغزل لهم قصب السبق لرقة عواطفهم وانهم غزليون دعتهم كل دواعي هذا الغرض من المعاني الطريفة ، الظريفة مثل قول الشاعر[١٣٦] .

واني لاخلو مذ فقدتك دائبا
فانقش تمثالا لوجهك في الترب
فاسفيه من عيني واشكو تضرعاً
إليه بما القاه من شدة الكرب
فوالله ما ادري بما انا مذنب
إليك سوى الافراط في شدة الحب

ومن المديح لهم طرف كبير ، ولابن سكرة الهاشمي[١٣٧] دلو في هذا الباب وفي غيره من ظريف الشعر .

قال في ابي الحسن بن عمرد بن يحيى (من العراق)[١٣٨] .

لقد امسكت من عمرد بن يحيى
بحبل لا اخاف له انبتاثا
حباني في الحياة ورمّ حالي
واوصى بي ابا حسن وماتا
فكنت مجاوراً للبحر منه
فلما مات جاورت الفراتا

فقد قيل : (ان زمانا جاد بابن سكرة وابن الحجاج لسيء جدا)[١٣٩] .

والمدح عند الظرفاء كثير كان فيه متنفسا للاحة استنهم :

ومن مليح شعر ابن ابي سكرة اخترت هذا البيت :

هو البحرُ الا إنّه عَذب مَوْرِدٍ
ومَن عَجَبٍ انّ العذوبةَ في البحر[١٤٠]

وجعلوا من الرثاء وسيلة يتظرفون من خلالها رغم ان الرثاء كما عهدناه تتفجر فيه الام الراثي على المرثي :

كقول ابن الحجاج في رجل سقطت امراته من السطح فماتت[١٤١] .

عفا الله عنها انها يوم ودّعت
اجلّ فقيد في التراب مغيّب
ولو انها اعتلت لكان مصابها
اخفّ على قلب الحزين المعذّب
واهوت إليه من يَفاع ودونه
ثمانون باعا في علو مصوّب
فصارت حديثا شاع بين مصدق
تحقّقه علما وبين مكذّب

الى ان قال :

فاعظم بهذا لك الله ربّها
وربك اجرّ الثكل في شاة اشعب

وعشق الظرفاء الطبيعة ووصفوها باشعارهم ففي وصف بستان قال احدهم[١٤٢] .

---

(١٢٥) نساء الخلفاء / ٩١ .
(١٣٦) الظرفاء ص / ٧٤ ـ ٧٥ .
(١٣٧) قال الثعالبي في اليتيمة ٢/٣ كان فاتقا في قول الملح والظرف .
(١٢٨) الثعالبي ٢٧/٣ .
(١٢٩) نفسه ٢/٣ .
(١٤٠) الثعالبي ٢٩/٣ .
(١٤١) الثعالبي ٤٩/٣ ، وفيه غير ذلك من شعر ابن سكره فقد اليه في الغزل والنسيب والخمريات ، وماجنى الشعر .
(١٤٢) ظرفاء النجد ص/٧٥ .

إذا لـــم يزرني ندمانيـــه
خلـوت فنادمتُ بستانيـــهْ
فنادمتـــه خَفِيـــراً مؤنقـــاً
يُهيّجُ لي ذكر اشجانيـــهْ
يُغرّبُ لي فرحـــة المستلـــذ
وَيُبْعِيـــدُ همي وَاَحزانيـــه
ارى فيـــه مثـــل مداري الظبي
تَظَـــلُ لاطلالهـــا حانيـــه
ونورُ اَقـاحٍ شتيت النبـــا
ت كما ابتسمت عجبـــا غانيـــه
ونرجســـة مثل عين الفتـــاة
الى وجـــه عاشقها رانيـــه

وفي وصف البدر قال بعضهم(١٤٣) :

والبدر في افـق الســماء كدرهم
ملقىً على ديباجـــة زرقـــاء

وفي ليلة قمراء قال آخر(١٤٤) :

هل لك في ليلـــة بيضـــاء مقمرة
كانها فضـــة ذابت على البلـــد

أما في العشـــق ، والحب ووصف لواعـج الشوق واحوال المحبة قالـوا الكثير ما لا يحصى ولا يعد ، وقد مر بعضه في اثناء البحث ، نذكـر بعضا آخر :

من قول العباس بن الاحنف(١٤٥) :

اغيب عنـــك بـودّ لا يغيّره
نأي المحلّ ولا صـــرف من الزمن
تعتلُ بالشغل عنـــا ما تكلّمنـــا
الشغلُ للقلب ليس الشغل للبدن

وقال آخر ، من قصيدة طويلة ، هذه بعض ابياتها(١٤٦) :

يا ايّهـا الممـــود
قد شفّك الصـــدود
فانـــت مستهـــام
حالفـك الســهـــود

يـا عاذلي كفّـــا
فانني ممـــود
قـــد اقصدت فؤادي
خمصانـــةٌ خريـد

واني لواجدة في ادب الظرفاء انسجاما مع طبيعة الحياة المترفة التي كانوا يحيونهـا فهـم راغبون في الحريـــة والانطلاق ، والتحـــدث عن ذكرياتهم والاعتراف برغباتهم ، وما تهفـو اليـــه نفوسهم ، ولذا فلقد كانت صور شعرهم ـ في كثير منها ـ زاخرة بمعانٍ حسية واضحة .

ومن قول ابن سكرة(١٤٧) :

في وجـه انســانـــةٍ كلفت بهـــا
اربعـــةٌ ما اجتمعن في احـــد
الخدّ وردٌ ، والصـــدغ غاليـــه
والريق خمـــرٌ ، والثغر من بَرَدٍ
لكلّ جـــزء من حسنهـــا بدَعٌ
تـودع قلبي بدائـــع الكَمَـــدِ

ومن ظريف ادب الظرفاء انهم يختارون من الفاظ الادباء في مكاتباتهم الحسن المليح ومعاتباتهم التي كانوا يضمنونها مأثور القول والشعر :

(اخبرني الوضـــاح بن ثابت الكاتب قال : كنت عند بعض الكتاب اذ دخلت عليه وصيفـــة كانها قمر ، تتثنى في مشيتها كانها جان ، او كانها غصن بان ريان ، حتى وقفت بين يديه ، فقالت : مولاتي تقرأ عليك السلام وتقـــول لك : يا اخي جفوتنا من غير استحقاق للجفاء ، وملت الى غير مذاهب الظرفاء ، واني لم ازل واثقـــة بأخائك ، راجية لحسن وفائك ، وتحقيق مؤملك اولى من الوقوف على تجنيك .

فقال لها : اقرئي عليها السلام ، وقولي لها ، يا اختي انا من ودك على احسن عهدك ، ومن الامل لك اضعاف ما عندك ، ولقد استوحشنا من فقدك فاجعلي لنا حظا من انسك)(١٤٨) .

وكتب بعض الكتاب(١٤٩) الى صديق له : ما زال ما احمد من عواقب رأيك واشبه من وفائك ، حتى وثـــق في ضميري من مودتك ما استجدني لطاعتك واستوى عليّ من موافقتك ، ما سهل علي

(١٤٢) نفسه .
(١٤٤) نفسه .
(١٤٥) ظرفاء النجد ص/٧٢ .
(١٤٦) نفسه ص/٧٢ .
(١٤٧) الثعالبي ص/٧٢ .
(١٤٨) الوشاء ٢/١٩٩ .
(١٤٩) نفسه .

سبيل عنبك ؛ فما اسألك بغلبة الهوى طريقا الا رضاك الى ان قال :

علي رقيب من هواك يقودني
إليك على الحالات في السخط والرضا
وليس هواي حيث لا يستحقه
ولكن هواي حيث كان لك الهوى
لساني رهين بالذي انت فاعل
ورأيي موصول بما كنته يرى
وما زلت لي عونا برأيٍ موفق
على صلةِ القربى يهدي اولى النهى

ولعل اظرف ما كان يجري في المجالس ادب المناظرات والمعارضات والمطارحات الشعرية نذكر من ذلك من قول عنان[١٥٠] : جارية الناطفي الذي كان يدعو الشعراء لمطارحتها في المجلس في بيته : من ذلك دعوته (ابا حنش) فقال له : هلم الى عنان فطارحها . قال ابو حنش : فعزمت على الغدو فبت ليلي اقول بيتين ثم غدوت عليها فقلت :

احب الملاح البيض قلبي وربما
احب الملاح الصفر من ولد الحنش
بكيت على صفراء في الدهر مرة
بكاء اصاب العين مني بالعمش

وكانت عنان ذات وجه جميل ، صفراء اللون .

فقالت :

بكيت عليها ان قلبي يحبها
وان فؤادي كالجناحين ذو رعش
تمنينا بالشعر لما اتيتنا
فدونك خذه محكما يا ابا حنش

وكانت عنان هذه تفحم الشعراء معارضة ومنهم ابو نواس شيخ الماجنين ومما جرى بينهما انه قال :

عنان لو جدت لي فانني
عمري في آمن الرسول بما

عنى بذلك انه في آخر العمر .

فردت عليه قائلة :

فإن تمادى ولا تماديت في
قطعك حبلي اكن كمن ختما

فرد عليها :

علقت مَنْ لو اتى على انفس
الماضين والغابرين ما ندما

فردت عليه :

لو نظرت عينها الى حجر
ولد فيه فتورها سقما

ومن طريف ما رواه صاحب الاغاني[١٥١] عن ابي نواس ؛ وجنان جارية آل عبدالوهاب عبدالمجيد الثقفي المحدث قال : (كانت جنان قد شهدت عرسا في جوار ابي نواس ، فانصرفت وهو جالس معنا ، فرآها فانشدنا بديها قوله :

شهدت جلوة العروس جنانْ
فاستحالت بحسنها النظارة
حسبوها العروس حين رأوها
فإليها دون العروس الاشارة
قال اهل العروس حين رواها
ما دهانا بها سواك عمارة

قال : وعمارة زوج عبدالرحمن الثقفي ، وهي مولاة جنان .

وفي خبر آخر قيل انها[١٥٢] (اي جنان) غضبت (من كلام كلمها به ابو نواس فارسل يعتذر اليها ، فقالت للرسول : قل له : لابرح الهجران ربعك ولا بلغت املك ممن احبتك ، فرجع الرسول اليه ، فسأله عن جوابها فلم يخبره ، فقال :

فديتك فيمَ عتبك من كلام
نطقت به على وجه جميل
وقولك للرسول : عليك غيري
فليس الى التواصل من سبيل
فقد جاء الرسول له انكسار
وحالٌ ما عليها من قبول
ولو ردت جنان مردَّ خيرٍ
تبيّن ذاك في وجه الرسول

فردت عليه .

فانشأ يقول[١٥٣] :

ياذا الذي عن جنان ظلَّ يخبرنا
بالله قل واعد يا طيّبَ الخبر

(١٥٠) المرأة في الادب العربي ص/٣٠١ .

(١٥١) ٦/٢٠ الاغاني .
(١٥٢) نفسه .
(١٥٣) الاغاني ٨/٢٠ .

قال اشتكتك ، وقال ما ابتليت به
اراه مـن حيث ما اقبلت في اثري
ويُعملُ الطرف نحوي إن مررتّ به
حتى ليخجلني من حدّة النظـر
وإن وقفت لـه كيمـا يكلمني
في الموضع الخلو لم ينطق من الحصر
ما زال يفعل بي هـذا ويدمنـه
حتى لقد صار من همي ومن وطري

ويطول ذكر مثل هذه المعارضات والمطارحات الرقيقة التي تنم عن القدرة والبراعـة وسـرعة البديهة لديهن .

وابدين ظرافة في ادب المراسلات كذلك من ذلك ان الشاعرة عنان كتبت الى الفضل بن الربيع كتابا تستحثه فيه ان يشفع لها عند الرشـيد ليشتريها وقالت(١٥٤) :

كن لي هديت الى الخليفة شافعـا
بوركت يا ابن وزيـره من معـلم
حثّ الامام على شرائي وقل لـه
ريحانـة ذخـرت لانفـك فاشمم

وكتبت عنان الى ابي النضير وكان قد كتب يدعوها للقائه بقوله :

إن لي حاجـة فرأيك فيهـا
لك نفسي الفـدا من الاوصـاب
وهي ليست ممـا يبلغـه غيري
ولا استطيعـه بكتـاب

فقالت :

انا مشغولـة بمن لست اهـوى
وقلبي من دونـه في حجـاب
فاذا مـا اردت امرا فاسـرر
ولا تجعلنـه فـي كتـاب

ومثل هذه المراسلات كثيرة ممـا جرى بين الظريفات والظرفاء(١٥٥) . وقد مرت منها امثلة .

(١٥٤) المحاسن والاضداد ص/١٥٦ .
(١٥٥) انظر المزيد في المرأة في ادب العصر العباسي ص/٢٢٧ ـ ٢٣٥ .

مراجع البحث

اخبار بغداد ـ مخطوطة المكتبة المركزية رقم/٩ محمود شكري الالوسي .

اخبار الظراف والمتماجنين ـ ابو الفرج عبدالرحمن الجوزي (ت ـ ٥٩٧هـ) تقديم وتعليق محمد بحر العلوم . النجف الحيدرية .

اخبار النساء ـ ابن قيم الجوزية (٦٩١هـ ـ ٧٥١هـ) . تحقيق نزار رضا . منشورات دار مكتبـة الحيـاة ـ بيروت .

الاذكياء ـ ابن الجوزي ، ط. بيروت .

اساس البلاغة ـ الزمخشري : جار الله محمود بن عمـر . مطبعة الشعب ، القاهرة ١٩٦٠ .

اشعار النساء ـ المرزباني : ابو عبدالله محمد بن عمـران (ت ٣٨٤هـ) . تحقيق سامي مكي العاني وهـلال ناجي . الرسالة ـ بغداد ١٩٧٦/١٩٩٦ .

اعلام النساء ـ عمر كحالة ، ط : ٢ ، دمشق ، الهاشمية .

الاغاني ـ الاصفهاني : ابو الفرج : تحقيق عبدالستار فرج ، دار الثقافة بيروت ١٩٥٩ .

الامتاع والمؤانسة ـ التوحيدي : ابو حيان . ضبط وتصحيح وشرح احمد امين واحمد الزين . دار مكتبة الحياة في بيروت .

بين الخلفاء والخلعاء ـ صلاح الدين المنجد ، دار الكتـاب الجديد .

التاج في اخلاق الامم والملوك ـ الجاحظ : ابو عمرو بن بحر ، الاميرية ، القاهرة ١٣٣١هـ/١٩١٤م .

تاج العروس من جواهر القاموس ـ الزبيدي : محمد مرتضى : منشورات مكتبة الحياة ، لبنان .

تاريخ الادب العربي ـ عباس العزاوي . المجمع العلمي ، بغداد ، ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م .

تاريخ الادب العربي في العصر العباسي الاول ـ ابو الخشب ابراهيم ، ١٩٦٦م .

التبصر بالتجارة ـ الجاحظ : ابو عمرو عثمان . الطبعـة الثانية / الرحمانية ١٣٥٤/١٩٣٥ . القاهرة .

ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ـ الثعالبي : ابو منصـور عبدالملك بن محمد . مطبعة الظاهـر ، ١٣٢٦/ ١٩٠٨ .

الجماهر في معرفة الجواهر ـ البيروني ابو الريحان محمد بن احمد (٤٠٠هـ) ١٣٥٥هـ حيدر اباد / المعارف العثمانية .

الحالة الاجتماعية في العراق في القرنين الثالث والرابع بعد الهجرة ـ ابو ريده بغداد ، مطبعـة الزهـراء / ١٩٧٠ .

الحضارة الاسلاميـة في القرن الرابع للهجـرة ـ آدم متز . ط : ٢ ، ١٣٦٧هـ/١٩٤٨م .

الحيوان ـ الجاحظ . تحقيق وشـرح عبدالسلام هارون ، ١٣٥٩هـ/١٩٤٠ ط : ١ .

الديارات ـ الشابشتي : ابو الحسن علي بن محمد (ت ـ ٣٨٨هـ/٩٩٨م) تحقيق كوركيس عواد ، مطبعة المعارف / بغداد ١٩٥١ .

ديوان ابي نواس ـ تحقيق وشرح احمد عبدالمجيد الغزالي . دار الكتاب العربي / بيروت ، لبنان .

رسائل الجاحظ ـ تحقيق عبدالسلام هارون . مطبعة الخانجي ـ القاهرة / ١٩٦٤م/١٩٦٥م .

شفاء الغليل ـ الخفاجي : شهاب الدين . ط : ١ ، ١٢٧١هـ، ١٩٥٢م المنيرية / الازهر . القاهرة .

الصداقة والصديق ـ ابو حيان التوحيدي ـ تحقيق ابراهيم الكيلاني ـ دار الفكر بدمشق / ١٩٦٤ .

طبقات الشعراء لابن المعتز ـ تحقيق عبدالستار احمد فراج ، مطبعة المعارف ، مصر .

طبقات النحويين واللغويين لابي بكر الزبيدي ، تحقيق محمد ابو الفضل / المعارف ، مصر .

الظرفاء والشحاذون في بغداد وباريس ـ صلاح الدين المنجد . الرسالة ، بيروت .

الكامل في التاريخ ـ ابن الاثير : محمد بن محمد (٦٣٦هـ) ، بيروت ١٢٨٦/١٩٦٦م دار الثقافة . صادر وبيروت.

لسان العرب ـ ابن منظور : جمال الدين محمد ، ١٩٥٦/ ١٣٧٥ .

المجتمع العراقي في شعر القرن الرابع الهجري : (رسالة ماجستير) لعبداللطيف عبدالرحمن / ١٩٧١م .

المحاسن والمساوىء ـ ابراهيم بن محمد البيهقي ـ تحقيق محمد ابو الفضل القاهرة / ١٢٨٤ .

المحاسن والاضداد ـ الجاحظ / دار مكتبة الهلال ، مطبعة الساحل الغربي .

محيط المحيط ـ بطرس البستاني .

المرأة في الادب في العصر العباسي ـ واجدة الاطرقجي (رسالة دكتوراه) حتى نهاية القرن الرابع الهجري . ١٩٧٨/١٣٩٨ .

المستطرف في كل فن مستظرف ـ شهاب الدين احمد الابشيهي (ت ٨٥٠هـ) ١٢١٤ .

المستطرف من اخبار الجواري ـ السيوطي : جلال الدين ؛ تحقيق صلاح الدين المنجد ١٩٧٦ / بيروت .

مطالع البدور في منازل السرور لابن عبدالله البهائي الغزولي ط : ١ ، ١٣٠٠ ، مطبعة الوطن .

معجم الفاظ القرآن الكريم ـ عبدالباقي . القاهرة .

معجم البلدان ـ الحموي : ياقوت ، ط : طهران .

المغرب ـ الجواليقي : ابو منصور : موهوب بن احمد (٥٤٠هـ) تحقيق احمد محمد شاكر ، ١٢٠٩ (بالافست) طهران ١٩٦٦ .

المنتظم في تاريخ الامم والملوك ـ ابو الفرج عبدالرحمن بن الجوزي . حيدر آباد / الدكن ، ١٣٥٩ .

الموشى ـ الوشاء : ابو الطيب محمد بن اسحق . تحقيق كمال مصطفى ط : ٢ / الخانجي القاهرة ١٣٧٣/١٩٥٣م .

نساء الخلفاء ـ ابن الساعي : علي بن انجب . تحقيق : مصطفى جواد .

نشوار المحاضرة واخبار المذاكرة ـ دار المعارف / مصر .

الوافي بالوفيات صلاح الدين ايبك ١٢٨١ ـ ١٩٦١ . ط : ٢ .

الورقة لابن الجراح : ابو عبدالله محمد بن داود تحقيق عبدالوهاب عزام طبعة المعارف/مصر .

وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان ـ ابن خلكان ت (٦٨١هـ) تحقيق : محمد محيي الدين عبدالحميد . النهضة/ مصر ، ١٩٤٨/١٣٦٧ . ط : ١ .

يتيمة الدهر في محاسن اهل العصر لابي منصور عبدالملك بن محمد الثعالبي (ت ـ ٤٢٦) حققه محيي الدين عبدالحميد .

المجلات :

مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق سنة ١٩٢٣م/٣ ، مقالة

مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق سنة ١٩٢٢م/٢ .

مجلة الرسالة لسنة ١٩٤٠/٨ مقالة ميخائيل عواد .

مجلة لغة العرب ١٩٣٠ مقالة انستاس الكرملي .

WWW.ATTAWEEL.COM